

جامعة عبد المالك السعدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بتطوان

ملامح من الحياة في حائل من خلال رحلة تشارلز داوتي "ترحال في صحراء الجزيرة العربية"

د. حياة بنت مناور الرشيدي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ والحضارة

العدد ٢٤ | أغسطس ٢٠١٨م

الهيئة الاستشارية

ملامح من الحياة في حائِل من خلال رحلة تشارلز داوتي

"ترحال في صحراء الجزيرة العربية"

د. حياة بنت مناور الرشيدي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم التاريخ والحضارة

٢٠١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تُعد شبه الجزيرة العربية، من أكثر المناطق التي استقطبت الرحالة الأجانب، ويُعد الجانب السياسي أحد أهم المعايير في رحلاتهم إليها، كما أنهم لم يهملوا بقية الجوانب الأخرى، فقدموا خدماتٍ جليلةً للمناطق التي ارتادوها، كإبراز لمعالمها، والكشف عن ما خفي من آثارها، والتعرف على تكويناتها الجيولوجية، وظواهرها الجغرافية، والتعرف على الحياة الاجتماعية بأدق تفاصيلها، وكذلك أوضاعها الاقتصادية.

ومع مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، توافد على شبه الجزيرة العربية العديد من هؤلاء الرحالة، وقد نشطت حركة الارتياد الأوروبي لشبه الجزيرة العربية بدايات القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وتعد رحلة "داوتي Doughty . ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م"، الذي زار الأجزاء الغربية والشمالية من شبه الجزيرة، من أبرز هذه الرحلات، إذْ تمتاز رحلته بوفرة المعلومات القيمة، كما يُعد كتابه تسجيلًا للحياة الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية لسكان المناطق التي وصل إليها.

ومن هذا المنطلق ارتأيت أن أكتب عن الأوضاع في حائِل من خلال كتاب رحلته، فجاءت الدراسة تحت عنوان:

"ملامح من الحياة في حائِل من خلال رحلة تشارلز داوتي "ترحال في صحراء الجزيرة العربية"

وقد جاءت الدراسة في المقدمة السابق عرضها، وتمهيدٍ وأربعةِ محاورَ، تناولت في التمهيد نبذةً تعريفية لصاحب الرحلة وكتاب رحلته، ثم جاءت محاور

الدراسة والتي ناقش المحور الأول فيها: ملامح من طبيعة حائِل الجغرافية من خلال رحلة داوتي، أما المحور الثاني فخصصته لدراسة: ملامح من الأوضاع الاجتماعية في حائِل من خلال رحلة داوتي، وجاء المحور الثالث ليتناول: ملامح من الأوضاع الاقتصادية في حائِل من خلال رحلة داوتي، وفي المحور الرابع تناول البحث: ملامح من الأوضاع العلمية في حائِل من خلال رحلة داوتي، وأنهيت دراستي بخاتمة شملت أهم نتائج البحث وتوصياته، وفيما يلي بيان ذلك ونشره.

التمهيد: نبذة تعريفية عن صاحب الرحلة وكتاب رحلته:

تشارلز داوتي "Charles Doughty"، (١٨٤٣–١٩٢٦م / ١٢٥٩ – ١٣٤٤هـ) شاعر ورحالة إنجليزي، درس الجيولوجيا في جامعة كمبردج، وقام برحلة استكشافية إلى المناطق المتجمدة وهو في العشرين من عمره، ثم درس اللغات كالإنكليزية والدنماركية والهولندية. بدأ رحلاته بإسبانيا وإيطاليا، ثم ذهب إلى اليونان، ومنها إلى مصر، فوصل الْقَاهِرَةِ عام ١٨٧٥م/ ١٢٩٢هـ، ثم عبر صحراء سيناء حتى وصل مدينة البتراء، وهناك سمع بمدائن صالح؛ المدينة الأثرية في شمالي الحجاز، فعزم على مشاهدتها، وانضم إلى قافلة للحج تحت اسم مستعار "خليل"؛ ووصل إلى مدائن صالح سنة ١٨٧٦م/ ١٢٩٣هـ، ليقضي عامين من حياته في الجزيرة العربية متجولًا في صحرائها الشمالية الغربية، عكف بعدها على إعداد كتاب رحلته، التي ظهرت طبعتها الأولى عام ١٨٨٨م/ ١٢٩٥هـ.

وتعود أهمية الكتاب إلى أنه يحوي تفاصيل مهمة عن المناطق التي زارها في الجزيرة العربية، فهو يروى في كتابه الأحداث التي رآها بعينيه، وسمعها بأذنيه. لقد أمدنا بمادة غزيرة عن المواقف التي تعرض لها، أو شاهد أحداثها بنفسه، ووصفها وصفًا دقيقًا وممتعًا بطريقةٍ عفوية وتلقائية، وقد واجه في رحلته صعوباتٍ كثيرةً، منها طبيعة الحياة القاسية في صحراء الجزيرة العربية بما فيها من حرارة الطقس أو برودته وقلة المياه وجدب المعيشة بوجه عام، إلا أنه تحملها بصبر وأناة، وقد سجل "داوتي" في رحلته العديد من اللوحات الشائقة، ومن بينها وصفه لقافلة الحج الشامي التي صحبها في بداية رحلته، ثم استقل عنها حين وصل مدائن صالح ليتعرف على ما بها من آثار ونقوش نبطية، ثم انتقل إلى

القُرْى والمدُن المجاورة لها في الحجر وتيماء والعلا وغيرها من الأماكن الأثرية والحضارية القديمة التي تقع في شمال غرب الجزيرة العربية، واستكشف ما بها من آثار ونقوش كتابية، فضلًا عن أنها كانت معبرًا للطرق التجارية العالمية، كما تعرف على المظاهر الطبيعية والطبوغرافية والجيولوجية لهذه المناطق؛ إذْ كان يحمل معه العديد من الأجهزة الخاصة بقياس الارتفاعات والأعماق وغيرها.

وتبدو أهمية الرحلة واضحة في تقديمها لوحة تاريخية عن إمارة آل رشيد، فقد عاصر داوتي فترة ازدهارها خلال رحلته مما جعله يقدم معلومات قيمة عن نشأتها على يد عبد الله بن الرشيد، وكان "داوتي" قد وصل حائِل عام ١٨٧٧م/ ١٢٩٤هـ بصحبة قافلة حج فارسية كانت قادمة من بلاد الرافدين، وكتب عن التطورات التاريخية التي مرت بها تلك الإمارة منذ نشأتها حتى الفترة التي وصل فيها إليها، والتي واكبت السنوات الأولى من عهد الأمير محمد بن الرشيد، وكانت عناية "داوتي" بالحديث عن العديد من الجوانب المتعلقة بإمارة آل رشيد؛ فذكر أمراءَها، وكيفيه وصولهم إلى الحكم، وعلاقتهم بالقوى المحيطة بهم، كما ألقى بعض الضوء على نمط الحياة في حائِل.

عقب زيارة "داوتي" لحائِل قام بزيارة أخرى إلى كل من بريدة وعنيزة من إقليم القَصِيْم، ثم رحل إلى خيبر ليعود مرة أخرى إلى القَصِيْم ومن هناك صحب قافلة حج كانت متجهة إلى مَكَّةَ، انفصل عنها لديانته؛ ليرافق قافلة أخرى

خارج حدود مَكَّةَ كانت متجهة إلى الطائف، ثم توجه منها إلى جدة ومنها إلى الْهِنْد[1].

(١) تشارلز م. داوتي: ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم، المركز القومي، ط٢، ٢٠٠٩م، مقدمة الكتاب؛ موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي، ١٩٩٢م.

المحور الأول: ملامح من طبيعة حائِل الجغرافية من خلال رحلة داوتي:

تقع حائِل[٢] (في منتصف سهل طويل يطلق عليه اسم سهيلات الخماشية، بين منيف جبل أجا الذى يرتفع من ذلك السهل إلى حوالى ٥٠٠ قدم، وتلك الأرض المكسرة المنخفضة، التي تحيط بتلك السهيلات، إلى مسافة فرسخين في اتجاه الشرق، نحو سلمى، أو إن شئت فقل: "جبل" فدك[٣]).

وهي معزولة بسور من ناحية الشمال عن الهواء الصحي بفعل الجبال التي يطلق عليها سميراء حائِل، الأمر الذى يجعلها خانقة الهواء في فصل الصيف[٤].

---

(٢) تقع منطقة حائِل في منتصف الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية بين خطى طول ٥٢" ٢٦' ٣٩°و٤٢" ٢٢' ٤٤° شرقاً، ودائرتي عرض ٣٤" ١٦' ٢٥ °و١٦" ٥٣' ٢٨° شمالاً، ويحدها من الشمال منطقتا الحدود الشمالية والجوف، ومن الجنوب منطقتا المدِينَةِ المنَوَّرَةِ والقصيم، ومن الشرق منطقة القصيم، ومن الغرب منطقتا المدِينَةِ المنَوَّرَةِ وتبوك، وليس لمنطقة حائِل منفذ على البَحْر إلا من خلال المناطق المجاورة لها. لمعرفة المزيد عن موقع حائِل انظر: حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية "شمال المملكة، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧هـ، ٣٧٩/١ – ٣٩٠.

(٣) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٧٠، ٤٧١؛ جبل فدك: ويبعد عن حائِل ٢٥٠كم جنوب غرب، ويعرف بالحائط، وبه وادٍ به آثار كثيرة من أبنية ومقابر وحصون. وقد ورد اسم فدك بين المدن التي احتلها الملك البابلي نيوبند الذي حكم في القرن السادس قبل الميلاد ((٥٥٦-٥٣٩ق.م)) وتضم أيضًا قلاعًا وحصونًا مشيدة بالأحجار السوداء المأخوذة من المنطقة، والتي لا يزال بعضها قائمًا وبحالة جيدة، وقد عثر على كتابات كوفية على الصخور.

http://www.aenashmal.com/n/s/2360

(٤) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٧٠.

(وسميراء حائِل عبارة عن جبل ذي لسانين يقفان إلى الوراء قليلا من المدينة، على شكل نصف قمر، ويمر من بينهما مجرى سيل حائِل الذى يقولون إنه يأتي من قفار[٥]).

(والجبل الموجود ناحية الغرب منخفض عن سميراء حائِل؛ أما القسم الشرقي فيصل ارتفاعه إلى حوالى خمسمائة قدم، وفى أعلى ذلك القسم الشرقي توجد خزانات الماء؛ كما كانت هناك في ذلك المكان محطة من محطات استطلاع العدو يوم أن كانت حائِل ضعيفة)[٦].

ومن ناحية الشمال، سهل كيزان أو "جيزان" مجلَّى، ويصل في اتساعه حتى قمم جبال طوال على، التي تقع على حدود صحراء النفود، وإلى جبل جلدية[٧]. وأسفل منيف جبل أجأ مكان يطلق عليه "ريع آجدة" أو "آقدة"، وهو عبارة عن فجوة أو مضيق في الجبل يؤدى إلى سهل عميق في منتصف جبل أجأ، وهو سهل كبير جدًّا، يوجد به نخيل تحيط به الصخور الضخمة، والمنطقة شديدة الحرارة في فصل الصيف، والمدخل الضيق المؤدي إلى هذا الخَلِيْج الصحراوي تتحكم فيه بعض البوابات المحصنة بقطعة من قطع المدفعية، فهو ملجأ أمين لأهل حائِل وبضائعهم ومنقولاتهم، إذا ما قامت الدولة العثمانية

(٥) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٧٠؛ قفار: منطقة تاريخية تقع في جنوب غرب مدينة حائِل على بعد (١٥) كم، وتكاد تلتحم بها الآن مع زيادة العمران ونمو البناء الحديث، وهي من مناطق قبيلة بني تميم.
https://ar.wikipedia.org/wiki

(٦) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٧٠.

(٧) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٧١.

عليهم بحملة من الحملات العسكرية، التي يخشون حدوثها في أي وقت من الأوقات[٨].

وأما الجزء الشمالي إلى الخلف من المنيف، أو ساحل جبل أجأ فيطلق عليه اسم "العويوض".

ويحيط بحائِل تربة الصحراء من كل جانب[٩]، وهي ليست واسعة فقد يستغرق الدوران حولها حوالي نصف الساعة[١٠]. فقد كانت حائِل قبل حكم آل الرشيد واحة صغيرة، ثم غدت مدينة كبيرة وعاصمة عامرة في حكم آل الرشيد، وغدت والمدُن المجاورة لها تكاد تتساوى معها[١١].

يصف داوتي[١٢] مناخ حائِل عمومًا بأنه يتسم بالجفاف والحرارة الشديدة، وفي الشتاء يميل للبرودة، وينعدم وجود الجليد في القمم الجبلية بالرغم من أن متوسط الارتفاع يصل إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم، وإن حدث فقد يكون مرة واحدة كل أربعين عامًا، وأخبر أهل حائِل داوتي أنهم (شاهدوا ذلك الجليد قبل عامين في فصل الشتاء، حيث بقي الجليد على الأرض طوال ثلاثة أيام: الأمر الذى أدى إلى الاحتفاظ بالإبل داخل المنازل، وأن الكثير من هذه الإبل نفقت بسبب ذلك الطقس السيئ وبسبب الجوع أيضًا).

---

(٨) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٧٢.

(٩) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٩، ٤٧٠.

(١٠) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٠.

(١١) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٣.

(١٢) نفسه، ٢/١/٦٩.

حائِل مقسمة إلى أحد عشر قسمًا إداريًّا، أما القسمُ الثاني عشر فهو السويفلى[١٣]، وفيما يتعلق بإدارة المدينة من حيث الحراسة والنظافة؛ فلم يكن يفرض فيها أية ضرائب، سواءٌ للخفارة "الحراسة" أو النظافة، ومع ذلك فشوارع حائِل نظيفة وآمنه، وكان (يجرى كسح[١٤] المخلفات ودفنها في حفر أو أماكن جانبية)[١٥]، وقد بنيت المدينة من الطين بطريقة متقنة، مع نظافة مبانيها وشوارعها، لدرجة أن داوتي خطر بباله العيش فيها[١٦].

ويحيط بحائِل مزارع النخيل، فعن يمينها بيارة طويلة من النخيل في الصحراء، محاطة بأسوار عالية، وعن شمالها بيارة أخرى تقع داخل الصحراء، ولكنها أكبر من الأولى[١٧]، ويوجد بسور المدينة بوابة شمالية تغلق أثناء الليل[١٨].

---

(١٣) داوتي: ترحال، ١٣/١/٢.

(١٤) كَسْح: كَنْس جميعه، والمِكْسَحة ما يُكْنَس به التراب وغيره. ابن منظور: لسان العرب ط دار المعارف، ٣٨٧٢/٥.

(١٥) داوتي: ترحال، ١٣/١/٢.

(١٦) داوتي: المرجع السابق، ٤٢٣/١/٢.

(١٧) داوتي: نفسه، ٤٢٤/٢/١

(١٨) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٥.

وبالنظر للمكونات المعمارية لمدينة حائِل، يجد الداخل إياها أنها حوت العناصر المعمارية الأساسية لبناء المدينة الإسلامية[١٩]، فهي تحوي:

- **الشارع العام أو السوق:** ويشق حائِل من المنتصف، ويعج منذ الصباح الباكر بالحرفيين والبدو، وقد انتشرت فيه الدكاكين الصغيرة المظلمة. وعند نهايته توجد سوق القمح، والعلف البرى، والحطب. وفي منطقة منخفضة من السوق توجد أماكن البائعات من النسوة، ومع نهاية السوق توجد مظلتان، إحداهما خُصَّت لفقراء البدو المسافرين، لينخوا فيها جمالهم، ويضعون فيها ما يحملونه من بضائع[٢٠].

- **المسهاب "الميدان العام":** ويقع بعد منطقة السوق، أمام قصر الإمارة، وهو مكان عام مربع الشكل. يشتمل على عدة معالم، منها المقهى الخاص بالأمير، حيث يجلس فيه مع حاشيته وجماعته وغيرهم من القادمين من خارج البلد لقضاء حوائجهم. كما احتوى جانب من الميدان العام على غرف صغيرة لضيوف الأمير يسكنون فيها، يطلقون عليها هنا اسم "المخازن")[٢١].

---

(١٩) من أساسيات بناء المدن الإسلامية وجود المسجد الجامع وقصر الحكم والمرافق العامة كالأسواق والمقابر. لمعرفة المزيد عن هذه المكونات انظر: المدينة الإسلامية لمحمد عبد الستار عثمان، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٩٨٨م.

(٢٠) داوتي: ترحال، ٤٢٤/٢/١

(٢١) داوتي: ترحال، ٤٣١/٢/١، ٤٤١.

وقد نعت داوتي هذه الغرف والتي سكن في إحداها بـ (زنزانة ضيقة ومظلمة)[٢٢]، لشدة صغرها.

– **المسجد الجامع لمدينة حائِل:** هو المسجد الكبير، (ويقع في الطرف البعيد من المسهاب "الميدان العام"، محاذيًا لغرف الضيافة، ولكنه مفصول عن تلك الغرف بواسطة شارع عام)[٢٣]، كان يمتلئ بالمصلين وقت الصلاة[٢٤].

– **قصر الحكم أو قصر الامارة:** قصر كبير محاط بسور مبني من الطين[٢٥]، ويمتاز بأن له طابعًا نبيلًا؛ بالرغم من أنه مبنيٌّ من الطين. ويصل سُمك الجدار إلى ما يقرب من ثمانية أقدام عند الأرض، وأكثر من أربعين قدمًا من حيث الارتفاع، ويبدو أنه مقام على مساحة كبيرة. وفي الميدان العام، ومبنى القصر حوالي مائة وعشر خطوات، وله برجان. وهو محصن بعدد من المدافع يتراوح بين خمس أو ستِّ قِطعٍ من مدافعِ الميدان الصغيرة، وقد ذكر داوتي الذي عاين هذه المدفعية أنها ليس ذات فائدة كبيرة؛ ومع ذلك فداناتها تستطيع تكسير الجدران المبنية من الطين في البلدان النجدية[٢٦].

---

(٢٢) داوتي: المرجع السابق، ٤٤٦/٢/١.

(٢٣) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٧.

(٢٤) داوتي: نفسه، ٤٤٧/٢/١.

(٢٥) داوتي: نفسه، ٤٣٠/٢/١؛ عن قصر برزان انظر: عقيل بن ضيف الله بن عمر القيمي: أقوال ومسائل في أخبار منطقة حائِل: دار الفجر الإسلامي، القاهرة؛ أحمد فهد العريفي: مقامات حائِلية: لمحات تاريخية اجتماعية، ونصوص شعرية، جامعة أنديانا، ٢٠٠٧م.

(٢٦) داوتي: ترحال، ١/ ٢/ ٤٥٧.

كما تحتوي أسوار القصر على أبراج حربية من الطراز النجدي جيد البناء[٢٧]. ويقع مدخل القصر تحت البرج في المنتصف، ويغلق أثناء الليل بباب مصنوع من الخشب الثقيل، توجد فيه فتحة صغيرة، يدخل منها الداخل الى القصر منحنيًا –ويكون الدخول قبل حلول الظلام، والمسحاب الموجود أمام القصر طوله خمسةٌ وعشرون خطوةً، والمخازن المبنية في مواجهة القصر أو القلعة يصل عددها إلى تسعة مخازن، وكل مخزن له باب به قفل من الخشب، والباب يفتح على فناء صغير، وخلف الفناء توجد غرفة الضيافة وهي بلا باب، ومربعة الشكل ومظلمة، وطولها خمسة عشر قدمًا وعرضها اثنا عشر قدمًا[٢٨].

ويفضي مدخل القصر إلى قاعة القهوة الضخمة، وهي مخصوصة لخدمة ضيوف الأمير، ففي الصباح يتناول فيها الضيوف إفطارهم ثم يذهبون لحال سبيلهم، وهي قاعة مبنية من الطين، شأنها شأن القصر الضخم؛ وبالقاعة مجموعة من الأعمدة المرتفعة يرتكز عليها السقف البسيط المكون من أخشاب الإثل (الطرفاء) وشِرح سيقان النخيل، والخوص المجدول، الذي لطخه الهباب والدخان الذى ينبعث يوميًا من وجار[٢٩] القهوة، وأسفل تلك الجدران توجد مصاطب مبنية من الطين ومفروش فوقها سجاد بغدادي، وعند مدخل تلك

---

(٢٧) داوتي: المرجع السابق، ٤٢٤/٢/١

(٢٨) تتميز منطقة حائِل بتراثها المعماري الفريد، وكذلك شدة تأثرها بالتراث المعروف في نجد.

(٢٩) "اوجار" وتلفظ أيضا "وجار" وهي كلمة تطلق على المكان الذي توقد فيه النار من أجل أعداد القهوة العربية، ويتخذ الوجار عدة أشكال منها المربع ومنها المستطيل، وبأحجام مختلفة حيث يتخذ أحد جوانبه لإيقاد النار، وجانبه القصيّ حيث تصف "الدلال". جريدة الرياض، الجمعة ١٦ ذو القعدة ١٤٣٧ هـ – ١٩ أغسطس ٢٠١٦م.

القاعة يوجد إناء ضخم من النحاس الأحمر، ومن فوقه "كوز" مربوط إلى سلسلة، تقوم النسوة يوميًّا بملءٍ ذلك الإناء من ماء السماء؛ وهؤلاء النسوة من بين أولئك اللاتي يعملن في المطبخ؛ ومُصُلِّح القهوة يأخذ الماء الذى يحتاجه من ذلك الإناء، كما أنه يسقى منه أيضًا كل من يكون عطشانًا. وفي الجزء العلوي من القاعة يوجد وجاران من وجارات القهوة، يجرى فيهما إشعال الحطب عندما يكون الطقس بارداً، وتشب النار تحت دلال القهوة العملاقة، في وجارات من الطين تشبه فرن الحداد[٣٠].

ومن مكونات القصر المعمارية أيضًا "قاعة الضيافة"، ويطلق عليها اسم "المِضيف"، وهي فناء مربع الشكل يقع داخل مباني القلعة، ومن فوق ذلك الفناء يوجد رواق، والضيوف الذين يدخلون قاعة الضيافة يمرون على مدفعية الأمير، التي تتكون من خمس أو ست قطع من المدافع الصغيرة، وحديد هذه القطع عفى عليه الزمن، والخشب الذى فيها متآكل ومتهالك، ويأكل الوافدون من البدو وعامة الناس في الدور السفلي، في حين يتناول كبار الشيوخ هم ورفاقهم الطعام في الشرفات، وهي مفروشة بالسجاد، وفيها يقدم للضيف التمر في طبق من المعدن، وعلى الشرفات يوجد يمام العِرَاق المنزلي أبيض اللون، وطول كل شرفة من تلك الشرفات التي لها أرضية من الطين يصل إلى حوالي ثمانين قدمًا؛ ومحمولة على خمسة أعمدة مستديرة ومسننة من الأعلى[٣١].

---

(٣٠) داوتي: ترحال، ٨٧/١/٢.

(٣١) داوتي: ترحال، ٨٧/١/٢.

ومن مكونات القصر: مجلس الأمير، ويصف داوتي كيفية الوصول إليه بأنه: (هناك شرفة طويلة أسفل القلعة المبنية من الطين، تقع بعد السور الخارجي وتطل على المسهاب "الميدان العام"؛ مررنا على تلك الشرفة، وفى المنتصف شاهدنا بابًا مجلدًا بالحديد، يقوم على حراسته من الداخل عبد شاب حبشي؛ طرقنا ذلك الباب، انفتح الباب على فناء داخلي صغير، يوجد فيه عدد قليل من رجال الأمير المسلحين والمكلفين بحراسة الأمير، وفى الناحية الجنوبية توجد الغرفة أو إن شئت فقل: المجلس الذى يجلس فيه الأمير، دخلنا في تلك الغرفة من خلال بابها، وكانت شبه معتمة، نظرًا لأن النوافذ هنا ليست سوى فتحه لدخول الهواء، ولم أشاهد، في كل نجد، أي غطاء زجاجي فوق تلك الفتحات) وقد فرشت أرضية المجلس بسجادة طويلة، وبه الوسائد الوثيرة، ومدفأة مشتغلة بالحطب(٣٢).

ومن مكونات القصر، المطبخ: وهو عبارة عن صالة متواضعة، أرضيتها من الطين، ويوجد فيها بركة ماء ومجرى لتوصيل الماء، ويجري سلق الأرز هو والشعير في أربع أو خمس أوانٍ من النحاس الأحمر تستعمل في سلق اللحم، وكان خدم المطبخ عبارة عن رجل واحد وتحت رئاسته أربع أو خمس من النساء؛ بالإضافة إلى بعض الصّبية، الذين يحملون صوانى الطعام المعدنية لتقديم الطعام أثناء عشاء الضيوف(٣٣).

---

(٣٢) داوتي: المرجع السابق، ٢/١/٨٧.

(٣٣) داوتي: نفسه، ٢/١/٨٨.

وبالقصر أيضًا مسجد يصلي فيه الأمير ورجاله وهو (منفصل أو خاص في داخل القلعة)[٣٤].

– **مقبرة المدينة:** وصفها دواتي بأنها: عبارة عن أرض صحراوية، تقع بين أسوار المدينة وصخور السميراء المنخفضة الوعرة[٣٥]. والقبور (عبارة عن كومة صغيرة، عليها شاهد عبارة عن كتلة من البازلت يأتون بها من تل البازلت، والقبور كلها هنا على هذه الشاكلة[٣٦].

كما وصف داوتي بعض المكونات المعمارية خارج مدينة حائِل منها:

– **المقر الصيفي لأمير حائِل:** ويقع على جانب الطريق من مدينة حائِل، وهو عبارة عن بناية عالية، مبنية من الطين المكسو بالجبس الأبيض، ولهذه البناية أبراج حربية من الطراز النجدي جيد البناء، مطلية باللون الأبيض، ويقال إن الأبراج كانت بها قطع مدفعية صغيرة، وأسفل المقر قناة، تنساب خلالها مياه الري إلى خزان عام[٣٧].

---

(٣٤) داوتي: نفسه، ٨٩/١/٢.

(٣٥) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

(٣٦) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

(٣٧) داوتي: ترحال، ٤٢٤/٢/١.

– **خزان المياه العام**: ويقع خارج المدينة، ويمتلئ بِالمياه من خلال قناة تنساب خلالها مياه الري، وتقع أسفل المقر الصيفي لأمير حائِل، وتحضر إليه نساء المدنية لجلب الماء منه(٣٨).

– **منازل بعض البدو المستقرين خارج سور حائِل**: وقد أقيمت بين المقبرة وبوابة المدينة، وهي عبارة عن مجموعة من الخيام المحاطة بسور طيني، وبها غرف مسقوفة بقماش الخيام، أو برج منخفض داخل المبنى الطيني نفسه(٣٩).

كما وصف لنا بعض قُرْى وضواحي حائِل، منها:

– **ضاحية الوسيط**، التي تقع عند ناحية البوابة الشمالية لحائِل، وهي ضاحية مهدمة، يفصلها مجرى السيل وحقولها عن مدينة حائِل، منذ سنوات قلائل، من زيارة داوتي، كان بها "أربعين قهوة"، وأربعين أسرة، ثم أصبحت أطلال بلا سكان، حيث مات أهلها بالطاعون "وباء". كانت حوائط منازلهم المبنية من الطين بلا سقوف، وقد أوشكت على السقوط لنزع الأخشاب منها، فقد هجر الناس حقولهم وتخلوا عن آبارهم وأعمال السقاية والري –إلى حد أن النخيل جف وذوى ثم مات(٤٠).

---

(٣٨) داوتي: المرجع السابق، ٤٢٤/٢/١

(٣٩) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

(٤٠) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٣.

- **قرية الخريمة**، والواقعة في الاتجاه الشمالي الشرقي من حائِل، وهي عبارة عن ضيعة كبيرة من النخيل الصغير، من ممتلكات الأمير، توجد بها بعض الآبار، والعيون التي يسقون منها ذلك الخيل[٤١]. وكشف لنا أنه خلف منطقة الخريمة مدفونٌ الكثير من الآثار التاريخية[٤٢]. فقد أخبره قاطنو المنطقة أن جبل طُمَّية الواقع في وادي الرماح جنوبي جبال ابنات التوأمية شهير في كل أنحاء نجد "بالثروات المدفونة فيه"، ومن بين هذه الآثار "قبر الصانع"[٤٣].

- **قرية السويفلي**: وتقع شمال حائِل، على بعد ميلين خلف السميراء، وكذلك وصف قرية قصر عربية، وأنها تقع شمال حائِل وقبل قرية السويفي، وهي والسويلفى يمثلان حائِل القديمة[٤٤].

- **مستوطنة الحاير**: عبارة عن شارع من الجدران المتداعية والمنازل الطينية المهدمة، كان الشَّمَّر قد أسسوا تلك المستوطنة منذ زمن بعيد؛ وأطلقوا عليها اسم الحاير لوفرة المياة الجوفية فيها، ثم نقلت المدينة من هذا المكان بسبب انخفاض المياه الجوفية شيئًا فشيئًا[٤٥].

---

(٤١) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧١.

(٤٢) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧١.

(٤٣) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٧٢. وتعمل "هيئة الآثار والسياحة" جاهدة في المحافظة على مثل تلك الآثار لتبقى أثرًا دائما للأجيال المتلاحقة.

(٤٤) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٧١.

(٤٥) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٢.

منازل حائِل وطريقة بنائها:

عن منازل حائِل وطريقة بنائها يذكر داوتي أنها (عبارة عن صفوف، مكونة من طابق واحد، لا يبدو عليها التحلل وإنما تبدو جديدة)[٤٦]. وأن (السواد الأعظم من بيوت حائِل مبنية بناية جيدة بالرغم من رداءة المادة المستعملة في البناء)[٤٧]. فالجدران مبنية من الطين، وهو على شكل طبقات سميكة، تدفن فيها كتل مسطحة من الحجر، جرى تجفيفها تمامًا من قبل في ضوء الشمس، وهي ثقيلة جداً، وذات قوة وتحمل كبيرين[٤٨].

فكانت جدران المنازل تبني بهذا الطين، وتدهن بالمغرة[٤٩]، وبعض الملاك ينبون جدارًا مزدوجًا لمنازلهم مع وجود شباك في كل جدار، بحيث يسمح بدخول الضوء، ولا يسمح بدخول أحوال الطقس، واسترعى انتباهه تزيينهم أعالي منازلهم ببعض الأطر مثلثة الشكل، فقال: (هذه الأطر تأخذ شكل المثلثات قائمة الزاوية؛ قد يتصور الغريب هذه الأشكال وكأنها مصنوعة من الخشب فوق مداخل المنازل. هذه الأشكال والأطر ليست سوى مزاغل تستعمل في الدفاع عن باب العائلة)[٥٠].

---

(٤٦) داوتي: نفسه، ١٣/١/٢.

(٤٧) داوتي: نفسه، ٤٥١/٢/١.

(٤٨) داوتي: نفسه، ١٢/١/٢.

(٤٩) المغرة : عبارة عن صبغة صفراء تستخدم لدهان الجدران.

(٥٠) داوتي: ترحال، ١٣/١/٢.

كما استرعى انتباهه تزيينهم أعلى النوافذ من الخارج وكذلك الجدران بأفاريز جميلة، فقال: (يجرى تشطيبها، في معظم الأحيان، من أعلى بأفريز بارز، مما يجعله يشبه الكورنيش الغريب المنحوت في كل من الواجهات الموجودة في كل من بيترا أو الحجر)[٥١]. ومن الداخل يميل ميسورو الحال إلى تزيين جدر منازلهم بنماذج على شكل طيور وزهور، أو آيات من القرآن مكتوبة بالجبس الأبيض[٥٢]، وتفرش أرضية المنازل بالحصر الجميلة، أما الأماكن المخصوصة للجلوس فتفرش بالسجاد البغدادي[٥٣]وكانون يوقدون ظلمة منازلهم بالمصابيح من الشحم الحيواني[٥٤].

وفي أيام الشتاء والبرد يشعل الأهالي النار في منازلهم التماسًا للدفء، فيذكر داوتي[٥٥] أنه (كان يجرى في القهوة الكبيرة إشعال نار في الصباح وفى المساء وقبل وصول الجميع إلى القهوة؛ لالتماس شيء من الدفء).

---

(٥١) داوتي: المرجع السابق، ١٣/١/٢.

(٥٢) داوتي: نفسه، ٤٥١/٢/١.

(٥٣) داوتي: نفسه، ٤٥١/٢/١.

(٥٤) داوتي: نفسه، ٩/١/٢.

(٥٥) نفسه، ٦٩/١/٢. وانظر: فهد صالح سليمان الحواس: عمارة المنزل بمنطقة حائِل، جامعة الملك سعود، كلية السياحة والآثار، قسم الآثار، ١٩٩٦م.

المحور الثاني: ملامح من الأوضاع الاجتماعية في حائِل من خلال رحلة داوتي:

- المجتمع الحائِلي وسكانه:

في الفترة التي زار فيها داوتي حائِل، كان يحكمها الأمير محمد بن الرشيد(٥٦)، وكان الناس ينظرون إلى عهده باعتباره عهدًا زاهرًا، وأنهم لم يشهدوا له مثيلًا من قبل، ولم تحدث خلاله أية كوارث عامة(٥٧).

وكان ابن رشيد يمتلك تقريبا حوالى ثلاثين واحة، منها خمسٌ عبارة عن مدن صحراوية، هي: الشعكخى، والجوف، وحائِل، وقفار، وتيماء، ويبلغ إجمالي

(٥٦)هو الأمير محمد بن عبد الله بن علي الرشيد، خامس حكام إمارة جبل شمر في حائِل، حكم من ١٨٧٣م إلى ١٨٩٧م، اعتمدت سياسته على عنصرين: البناء والتنمية الداخلية أولًا، والتوسع الخارجي وتوحيد مزيد من الأقاليم ضمن دولته ثانيًا، وقام بتوزيع وتنظيم القوى العسكرية، وقسمها إلى ثلاثة قطاعات: الشرطة الداخلية، الحرس الخاص، الجيش، فأسهم في بسط الأمن على كافة الأراضي التابعة لحكومته، ما أدى إلى حدوث ازدهار اقتصادي عام، ويعد عصر محمد العبد الله الرشيد، العصر الذهبي لإمارة جبل شمر، من حيث الاستقرار وتوسع النفوذ وزيادة الموارد المالية للدولة، توفي عام ١٨٩٧م. لمعرفة المزيد عن إمارة آل رشيد انظر: عبد الله بن صالح العثيمين: نشأة إمارة آل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، و ط٢، ١٩٩١م؛ مضاوي الرشيد: السياسة في واحة عربية: إمارة آل الرشيد، مكتبة دار الساقي للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٧؛ خليفة عبد الرحمن المسعود: موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية دراسة تاريخية وثائقية، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠٤م.

(٥٧) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٧٤.

السكان فيها بين ١٢ ألف و١٣ألف نسمة، كما لا تضم واحة الروثة، وسميراء، والحيات، أكثر من ٥٠٠٠ نسمة[٥٨].

أما عن الهجر النائية الموجودة في صحراء جبل شمر، فيسكن في كل هجرة من تلك الهجرات عائلة واحدة أو عائلتان وأحيانا ثلاث عائلات، وهم عادة ما يكونون قد جاءوا إلى تلك الهجر من القُرْى المجاورة؛ وفى أغلب الأحيان، قد تتكون كل هجرة من هذه الهجر من عشرين بيتًا، ولا يزيد عدد السكان في كل بيت على عشرة أفراد. ومن بين هذه الهجر: الجفيفة، العجلَّة، القُصَّة، البديعة، حليفة، ضرغرد، ماخول، عثيم. البعض من هذه الهجر لا يعدو أن يكون مجرد بيت ريفي، يظل مهجورًا بعد حصاد التمر في شهر أبريل، إلى فصل الخريف وإلى أن تحين أشهر الري والزراعة: ولكن قُرْى التمر بها سكان دائمون، البديعة، وضرغرد. وبذلك يمكن القول إن سكان جبل شمر المستقرين يُقَدَّرون بحوالي ٢٠٠٠٠ نسمة، ويضاف إليهم أتباعهم من بنى وهاب، والفجير، ويصل عددهم إلى حوالى ٨٠٠ نسمة، وكذلك نصف قبيلة أولاد علي في الجنوب، ويقدر عددها بحوالى١٦٠٠نسمة، والبشر في الجنوب، ويتكونون من ٣٠٠٠ نسمة تقريبًا، والقسم الشمالي من قبيلة حرب، ويصل عددهم الى ٢٠٠٠ نسمة تقريبا، وهم موالون لابن الرشيد، والجزء الجنوبي من الشمر لا يزيد عدده بحال على ٢٠٠ نسمة، والحطيم في المنتصف، ويقدر عددهم بحوالي ١٥٠٠نسمة، والشرارات، ويبلغ عددهم حوالى ٢٥٠٠ نسمة، وبذلك يصل إجمالي أعداد الناس هنا إلى حوالي ١٤٠٠٠ نسمة أو ما يقل عن ذلك، يضاف

(٥٨) داوتي: المرجع السابق، ٣٢/١/٢، ٣٣.

إلى ذلك أن عدد السكان والبدو المستقرين لا يزيد بحال من الأحوال على ٣٠٠٠٠ نسمة(٥٩).

وعن النسيج السكاني لمدينة حائِل فإنه يتكون -في معظمه- من قبائل عربية تأتي في مقدمتها قبيلة شمر، وبنو لام من طيء، وقبيلة تميم، إضافة إلى خليط من بدو القبائل العربية، كحرب وعنيزة وغيرها، كما يوجد بها عناصر أخرى غير قبلية استقرت بها نتيجة لظروف خاصة بها، كالعديد من التجار المشاهدة، كبيت سيد محمود وهو تاجر كبير من تجار "المشاهدة"، يذكر داوتي أن (تجار مشهد؛ والمشاهدة عبارة عن خمس وثلاثين أسرة مقيمة في حائِل)(٦٠)، كذلك حوت حائِل بعض العناصر العربية من بلاد المغرب الإسلامي، وكانوا يعملون في حراسة بوابات قصر الأمير، مثل (زيد، البواب المغربي الذي يحرس بوابة القصر)(٦١)، كما حوت حائِل في نسيجها الاجتماعي عبيدًا أحباشًا؛ فيذكر داوتي أنه التقى في حائِل برجل اسمه عنيبر دعاه إلى منزله، وقدم له إفطارًا ممتازًا، كان حبشيًّا من الأحباش (الذين ولدوا في أسرة عبد الله بن الرشيد، ولذلك فهو يعد أخًا عبدًا من إخوان طلال، ومتعب ومحمد: يضاف إلى ذلك أن اسمه ينسب إلى اسم الرشيد وهذا العنيبر....، كان شخصية كبيرة في حائِل، فيما يتعلق بشئون الإمارة وذلك منذ عهد الأمير طلال، كان عنيبر نشيطاً

---

(٥٩) داوتي: ترحال، ٣٢،٣٣/١/٢؛ ولمعرفة المزيد عن قرى حائِل. انظر:
www.mekshat.com ؛nrjsih.own0.com.

(٦٠) داوتي: المرجع السابق، ٤٥٥/٢/١؛ لمعرفة المزيد عن قبيلة شمر انظر: نايف بن مطلق الشمري: قبيلة شمر في كتابات العرب والمستشرقين، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠١٢م.

(٦١) داوتي: نفسه، ٨٣/١/٢.

وواسع الأفق، وراقي السلوك، ولكنه في داخله كان يحمل روحا غير روح العبد: فقد نشأ على هذه الأرض وتربى عليها)[٦٢].

كما وجد بمجتمع حائِل بعض من أسلم من اليهود والنصارى واستقر بحائِل، مثل أسرة عبد الله المسلماني، فهو من اليهود الذين أسلموا واستقروا بحائِل بعد دخوله الإسلام، وقد سمح له أمير حائِل بالإقامة فيها وأن يمارس البيع والشراء، وأعطاه ألف ريال عقب دخوله الإسلام[٦٣]. وفي هذا دلالة واضحة على روح التسامح التي كانت سائدة في المنطقة في تلك الفترة، وحرص الجميع على تطبيق الوسطية التي نادى بها الإسلام.

أما عن صفات وأخلاق أهل حائِل: فقد لامسها داوتي عن قرب بعد أن احتك بهم فترة طويلة كانت كفيلة بأن يرسم صورة واضحة عنهم، فذكر عن أخلاقهم أنهم أشخاص لطفاء، كرماء، يمتازون بالشجاعة والصراحة في أقوالهم وأفعالهم، أذكياء، نبلاء، طيبون بسطاء، لا يقبلون الرشاوي، ولا يسعون للفساد، يذكر داوتي أن أحدهم حاول أن يقضي مصالحة في حائِل، عن طريق تقديم رشوة للقاضي تقدر بعشرة ريالات، ولكن القاضي رفض غاضبًا، ونهض واقفًا في مكانه، وراح يوسع الرجل ضربًا، ثم حوله إلى الأمير، الذى قام هو أيضًا بضربه، وأمر عبيده بأن يضربوه[٦٤].

---

(٦٢) داوتي: نفسه، ١/٢/٤٥٣.

(٦٣) داوتي: ترحال، ١/٢/٤٥٢، ٤٥٣.

(٦٤) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٥٩.

كما اتسم أهل حائِل بالكرم حتى (المسلم الذى يجيء إلى حائِل، بل حتى الفرنجي الغريب الذى ينحني لهم ويتفق معهم، يجد الشَّمر الحضر كرماء وهم كرماء بحق)(٦٥).

كما عرف عن أهل حائِل الطيبة، وحسن النية، وعدم الميل للجدال، والتسليم للحجج العادلة المنصفة، وتفضيل الكلام الواضح الخالي من التَّملُّق(٦٦). وبما أن الناس على دين ملوكهم فقد لاحظ داوتي ذلك، فيقول: (والمعروف أن كلًّا من حمود والأمير محمد يؤثران في سلوكيات وتصرفات الناس: فهذا هو حمود بصراحته الواضحة، ومحياه المشرق المبتسم يبدو وكأنه واحد من عامة الناس وقريب جدًا من حديثهم وكلامهم؛ وهذا هو الأمير محمد، تراه لطيفًا في بعض الأحيان، بالرغم من غلظته الملكية، وتراه أيضًا يتكلم كلامًا لطيفًا فيما بين هذا وذاك) (٦٧).

وقد اعتاد أمير حائِل يوميًّا استقبال الناس في المسهاب أو الميدان العام لقضاء حوائجهم والاستماع إليهم، فيصف لنا داوتي يومًا من هذه الأيام، فيقول وقد استعرض داوتي يومًا من أيام أمير حائِل وكيف هي العلاقة الاجتماعية بينه وبين رعيته؛ فذكر أنه بعد مضي حوالي ساعتين على شروق الشمس يصل الأمير إلى المسهاب (الميدان العام) ليحضر انعقاد المجلس الصباحى، وهو يشبه المحكمة الشعبية، والمجلس عبارة عن مصطبة مبنية من اللبَّن بطول جدار القصر المواجه

(٦٥) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٩.

(٦٦) داوتي: نفسه، ٦٨/١/٢.

(٦٧) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٨.

للمسهاب "الميدان العام"، وأمام المسجد، وتمتد حتى بوابة البرج؛ وفى منتصف المصطبة مكان جلوس الأمير، وهو مرتفع قليلًا ومبنيٌّ من الطين، ويوجد أمامه مصطبة صغيرة أسفل منه يجلس عليها كاتب الأمير "سكرتير الأمير"، ومقابل جدران المسجد، يوجد مقعد مرتفع، يجلس فيه الشيوخ، وعلى الجنب، وفى مواجهة الأمير، يجلس القاضي(٦٨)، وعلى جانبي الأمير يجلس الشيوخ ورفاق الحاشية، ويقف حرس الأمير أمام الشيوخ على الجانبين، وفوق مصطبة طويلة من اللبن يجلس رؤساء الخدمة العامة ومعهم سراياهم، يليهم البدو الزائرون الذين يجلسون حسب منازلهم، وقد انتشر رجال ابن الرشيد في الميدان العام، متكئين على سيوفهم، وقد تراوح عددهم ما بين مائةٍ ومائةٍ وخمسين رجلًا، وفي المجلس يستمع الأمير إلى قضايا الناس، ويفصل فيها، ويصدر أحكامه ويتم تنفيذها على الفور(٦٩)، ويذهب الحضر إلى المجلس وهم يرتدون ملابس نظيفة قيمة،

---

(٦٨) كان قاضي حائِل فترة وجود داوتي بها هو الشيخ عبد العزيز بن صالح المرشدي من آل مرشد أهل الرياض، كان عالما متبحرًا في العلم، قوي الذاكرة حاد الذهن جيد الفهم، قرأ وتعلم بالرياض، تولى القضاء بحائِل زمن محمد بن رشيد وبعده الأمير عبد العزيز بن متعب آل رشيد، أخذ عنه العلم جماعةٌ من العلماء بحائِل، منهم الشيخ صالح السالم قرأ عليه الزاد وتفقه به، والشيخ يعقوب بن محمد، والشيخ عطية السلمان المزيني، والشيخ حمد بن محمد أبو عرف، وأخذ عنه أبناؤه إبراهيم بن عبدالعزيز المرشدي، وكان هو قارئ والده في الدرس وأحمد بن عبد العزيز المرشدي، والشيخ عبد الرحمن بن عبدالعزيز المرشدي، وكانوا علماء أجلاء. توفى الشيخ عبدالعزيز سنة ١٣٢٤هـ. انظر: علي بن محمد الهندي: زهر الخمائل في تراجم علماء حائِل، جدة، ١٣٨٠هـ، ص ٢٢

(٦٩) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٥٨- ٤٥٩.

بينما البدو يجيئون بملابسهم البالية، وبعد أن يقضي الأمير حوائج الناس، ينفض المجلس، وينصرف الأمير ومعه جماعته، ليذهبوا إلى منزل من منازل الأمير[٧٠].

وكان أبناء الشيوخ يختلطون مع أبناء الشعب في المدينة؛ كل ما في الأمر أنهم يتميزون عنهم بجودة ملابسهم التي كانوا يرتدونها[٧١].

ومن عادة الرجال في حائِل الجلوس في المقاهي لتناول القهوة العربية والتحادث فيما بينهم[٧٢]. كما كانوا يجلسون أمام منازلهم فترة العصرية لاستنشاق نسيم العصر العليل [٧٣].

كما حرصوا على أداء الصلوات المفروضة في أوقاتها في المسجد الكبير، أما السُّنن فيؤدونها في منازلهم[٧٤]. فيذكر داوتي[٧٥] أنه (وعندما يسمع الناس صوت المؤذن لصلاة العشاء، ينهض حمود واقفًا في الحال، ومعه الجماعة، وهنا يتقدمهم عبد يمسك في يده جريدة من جريد النخيل، وقد أشعل فيها النار، ويخرج الجميع لأداء الصلاة في المسجد، الذى يقع في الطرف البعيد من المسهاب "الميدان العام").

---

(٧٠) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٦٢.

(٧١) داوتي: نفسه، ٤٩/١/٢.

(٧٢) داوتي: ترحال، ٤٣٠/٢/١.

(٧٣) داوتي: المرجع السابق، ٤٣١/٢/١، ٤٤٥.

(٧٤) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٧.

(٧٥) نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٧.

كما اعتاد ملاك البساتين والمزارع والأحواش في حائِل وجود مصلى في أراضيهم، فكانوا يخصون قطعة من الأرض للصلاة فيها، عبارة عن حلبة مرتفعة، مربعة الشكل من الطين، ولها كورنيش منخفض، ومفروشة بالحصى النظيف(٧٦).

ولما كان للنفس حظها ونصيبها من اللهو واللعب، فكان رجال حائِل مولعين بالفروسية وسباق ركوب الخيل(٧٧).

كذلك اعتادوا الخروج يوميًّا إلى الحقول، ومعهم بنادقهم للتدريب على الرماية، فكانوا يعلقون ورقة بيضاء على جدار من جدران البستان، ويصوبون نحو الورقة بنادقهم باستعمال بارود إنجليزي على شكل مسحوق، موضوع في قنينة من القصدير أو الصفيح (٧٨). وفي فصل الشتاء يخرجون للمشاركة في المقناص الذي يقومون به إلى جبل أجأ؛ (لاصطياد البدون(٧٩)، ويأخذون معهم الحمير التي تحمل لهم الماء المطلوب، وقد جرت العادة أن يمضوا أسبوعًا في ذلك المقناص، ويعتمدون في عشائهم على ما يصطادونه)(٨٠). وأما الأطفال فكانوا

---

(٧٦) داوتي: نفسه، ٢/١/٢٠.

(٧٧) داوتي: نفسه، ١/٢/٤٣١، ٤٣٩

(٧٨) داوتي: نفسه، ٢/١/١٧.

(٧٩) يقصد بالبدون هنا الحيوانات وهي من البَدن، ففي لسان العرب: البَدن وهي المواشي من الإبل والبقر والبعير. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١/٢٣٣.

(٨٠) داوتي: ترحال، ٢/١/١٩. تمتاز حائِل بوجود مناطق ذات طبيعة خلابة اعتاد الأهالي الخروج إليها للتنزه والمرح، وتلاقي هذه الأماكن رعاية واعتناء من قبل الحكومة السعودية من خلال ما توفره من خدمات أمنية وبنيوية. وانظر جريدة الرياض، الأربعاء ٢ ربيع الأول ١٤٣٣هـ – ٢٥ يناير ٢٠١٢م – العدد ١٥٩٢٠.

يلعبون في أفنية منازلهم[٨١]. أما الفتيات الصغيرات فلا يراهن أحد في الشوارع العامة خارج المنزل[٨٢].

وكانوا يأنفون عن شرب التبغ والشيشة إلا ما ندر منهم، إذْ انتشر شرب الشيشة بين بعض التجار القاطنين بحائِل[٨٣].

ورغم محاولتهم الحفاظ على صحتهم إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار الأمراض والأوبئة بينهم، خاصة مع غياب الوعي الصحي وكذلك الأطباء، فحين زار داوتي[٨٤] حائِل ذكر أنه (ليس هناك طبيب في نجد؛ ولكن جرت العادة أن يروا كل عام طبيبًا أعجميًّا، وهو يجيءُ إلى حائِل بين الحجاج الفرس).

وقد ادعى العديد من الغرباء الوافدين على حائِل أنهم أطباء، واستخدموا أمور الشعوذة والسحر للعلاج من خلال الأحجبة التي كانوا يصنعونها لمرتاديهم من المرضى مقابل أموال باهظة، فيذكر داوتي أنه سكن في غرفة كان يسكنها قبله رجل مغربي يدعي أنه طبيب كان يعالج الناس بالأحجبة[٨٥]، وكان يتقاضى ثلاثة ريالات عن كل حجاب [٨٦].

---

(٨١) داوتي: ترحال، ٧٣/١/٢.

(٨٢) داوتي: المرجع السابق، ٤٩/١/٢.

(٨٣) داوتي: نفسه، ٢/١/ ٤٥٧.

(٨٤) نفسه، ٩/١/٢.

(٨٥) وهذا نوع من الجهل يستغله الآخرون لمصلحتهم.

(٨٦) داوتي: ترحال، ٩/١/٢.

ونتيجة لتفشي الجهل وغياب الوعي الديني اعتقد بعض الناس أن الأمراض النفسية كالصرع والاكتئاب الشديد هي مس من الشيطان، فكانوا يذهبون بمرضاهم إلى المشعوذين الذين يدعون أنهم يخرجون الجن(٨٧).

ومن أشهر الأمراض التي انتشرت في حائِل أمراض العيون كالرمد، تليها أمراض الأمعاء، والدوسنتاريا، والملاريا، والروماتيزم، والحمى، والكوليرا، والسرطان، والشلل الجزئي الذى يؤثر على الأطراف السفلى(٨٨)، والبهاق أو البرص؛ وهذا الأخير كان مرضًا عجيبًا إذْ كانت البشرة ملونة ببقع بيضاء، تنتشر خلال ثلاثة أيام في كل من الصدر والعنق(٨٩). وذكر داوتي أن سوء التغذية سبب رئيس للكثير من الأمراض وأن (الفقراء هنا هم الذين لا يأكلون طعامًا جيدًا، ولذلك فهُم الأكثر تعرضًا للمرض)(٩٠).

كما أشار داوتي(٩١) إلى مرض الطاعون الذي أصاب حائِل قبل وصوله بسنوات قلائل، وأن (الذين كانوا يزورون حائِل، خلال فترة الوباء، يموتون أسرع من أهل المدينة نفسها). وكانت أعراض الإصابة بالطاعون، والتي عادة ما

(٨٧) داوتي: المرجع السابق، ٢/١/٩.

(٨٨) داوتي: ترحال، ٢/١/١١.

(٨٩) داوتي: المرجع السابق، ٢/١/١٢.

(٩٠) داوتي: نفسه، ٢/١/١١.

(٩١) نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

تصيب الرأس والأمعاء، عبارة عن بقعة سوداء تظهر على الأنف، مع تغيير في لون الأظافر، مع آلام شديدة تشبه آلام مرض الكوليرا[٩٢].

ولعل أكثر المناطق التي تضررت بالوباء أو الطاعون قرية الوسيط، إذْ مات منها ثلاثمائة شخص، وفى حائِل، "مات من كل أسرة فرد واحد أو فردان، أي إن إجمالي الوفيات كان يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة مُتَوَفٍّ[٩٣].

وبعد الطاعون، أصابت البلد حمى دامت عامين، إلى أن جاء حائِل رجل من الحضر، جلب معه من الشمال دواء "الكنين"، وراح يبيعه على المرضى كل "عشر أو اثنتي عشرة ذرة بخمسة ريالات"[٩٤].

وكان المريض يتعاطى دواء "الكنين"[٩٥] بعد جرعة مطهرة من الملح الإنجليزي، فيشفى من الحمى[٩٦].

ولكن عندما يحين الأجل، وتُتوفى الأنفس؛ فإن أهل الميت يكفنون ميتهم برداء بسيط بدون أية زينة[٩٧]. مستسلمين لقضاء الله وقدره، (ويقولون

---

(٩٢) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

(٩٣) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٣.

(٩٤) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

(٩٥) دواء الكينين أو "الكوينين" : مركب كيميائي شبه قلوي، أبيض بلوري، ذو طعم مر، له خصائص عديدة منها: خافض للحرارة، علاج للملاريا، مسكن، مضاد للالتهاب. انظر للمزيد عنه https://ar.wikipedia.org/wiki

(٩٦) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٧٤.

(٩٧) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٧٤.

لمن يموت "خلاص؛ بمعنى: لقد انتهى أجله"، وهم يطوون تلك الذكرى الأليمة بشيء من الحكمة ودون مبالغة في الحزن)[٩٨].

(٩٨) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٥.

الملبس والمأكل:

ولعل نظافة مدينة حائِل تعود إلى المرأة، التي اعتادت النظافة في ملبسها ومأكلها ومسكنها، فقد كانت النساء يجلبن المياه من البرك العامة –رغم عدم جودته – في جرارهن وقرابهن لاستعماله في حوائجهن وغسل أشيائهن المنزلية(٩٩).

وعن ملابسهن ذكر داوتي بعضها، إذْ كن يرتدين رداء من البفتة المصبوغة بصبغة النيلة، وأنهن يسترن وجوههن بالحجاب في وجود الأجانب أو عند الخروج من المنزل(١٠٠). وأنهن اعتدن على استعمال أدوات الزينة، وكن يشترينها من السوق من نساء مثلهن يتعاطين هذه التجارة والبيع والشراء في ما يخص النساء (١٠١).

أما الرجال فيرتدون الثوب "التونك" الطويل الواسع، لونه أبيض ناصع، ويضع كل واحد منهم على كتفه عباءة الأعراب المصنوعة من أجود الأصواف البغدادية، أو من القماش الأسود الذي يجلب من أوروبا، ويرتدون الهجو haggu على أجسادهم، شأنهم في ذلك شأن بقية البدو الرُّحل في سائر أنحاء الجزيرة العربية(١٠٢). والرجال من أهل شمر يضعون على رؤوسهم الغترة والعقال

---

(٩٩) داوتي: نفسه، ١٣/١/٢.

(١٠٠) داوتي: نفسه، ١١/١/٢.

(١٠١) داوتي: نفسه، ٤٣٠/٢/١.

(١٠٢) داوتي: ترحال، ٤٣١/٢/١، ٤٤٤

المصنوع من الصوف، ويطلقون عليه اسم "المعصوب"[١٠٣]. وقد وصف داوتي ملابس الأمير محمد حاكم حائِل بأنه (كان يجلس جلسة أهل الجزيرة العربية في ثوبه الفضفاض المصنوع من القطن، ويرتدى عباءته وغترته، وساقاه ورجلاه عاريان، في حين كان حذاؤه الذى خلعه من قدميه، موضوعًا على السجادة من أمامه)[١٠٤]، كما وصف ملابس بعض شبان حائِل فقال: (الغالبية العظمى من أولئك الشبان الصغار، الذين أراهم في المدنية، وهم يرتدون معاطفهم الحريرية)[١٠٥].

ولا فرق في نوع الملابس من حيث الشكل بين الأثرياء المستقرين والبدو الرحل المتجولين سوى في جودتها ونظافتها، يقول داوتي: (أمراء حائِل يلبسون ملابس مثل ملابس البدو الرحل، ولكنها جديدة ونظيفة ومن خام ممتاز)[١٠٦].

ولم تكن الزينة مقتصرة على نساء حائِل، بل إن الرجال أيضًا اعتنوا بزينتهم فكان الأثرياء منهم يضعون الكحل في عيونهم[١٠٧].

كما اعتاد الرجال على حمل سيوفيهم معهم، وكانت مصنوعة من الصلب الدمشقي، وأغلاها المصنوعة من الصلب الإنجليزي[١٠٨]، ومن أجود

---

(١٠٣) داوتي: المرجع السابق، ٩٣/١/٢،

(١٠٤) داوتي: نفسه، ٢١/١/٢.

(١٠٥) داوتي: نفسه، ٨/١/٢.

(١٠٦) داوتي: نفسه، ٩٣/١/٢،

(١٠٧) داوتي: نفسه، ٤٣٠/٢/١.

(١٠٨) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٥.

السيوف سيف الأمير محمد، فقد كان سيفًا خفيفًا، له مقبض مصنوع من الذهب، كان الأمير يحمله في يده بصورة دائمة(١٠٩).

---

(١٠٩) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٥(٢١/١/٢). لمعرفة المزيد عن ملابس أهل المنطقة انظر: ليلى صالح البسام وتهاني ناصر العجاجي: أزياء النساء التقليدية في المنطقة الشمالية من المملكة العربية السعودية، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد ١٨؛ ليلى صالح البسام: الأساليب والزخارف في الملابس التقليدية في نجد "دراسة مقارنة بين ملابس الرجال والنساء" رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات بالرياض، ١٩٨٨م؛ جريدة الرياض الخميس ١٩ شوال ١٤٣٣ هـ - ٦ سبتمبر ٢٠١٢م - العدد ١٦١٤٥.

المأكل والمشرب:

اعتمد الأهالي في طعامهم على اللحم الضأن وكذلك الأزر، وكان زادهم ومؤنتهم في الحال والسفر والترحال (التمر، الدقيق، والسمن)[١١٠].

ويبدؤون طعامهم بالتسمية، وينهونه بالحمد، وتُعد الوجبة الرئيسة هي العشاء. أما وجبة الإفطار فتكون عادة بعد شروق الشمس مباشرة، وهي مكونة من الحليب، وعند الظهر يتناولون شيئًا من التمر، أما الوجبة الرئيسة فهي وجبة العشاء وعادة ما تكون بعد غروب الشمس، وتتألف من اللحم الضأن والأرز[١١١]. وبعد الفراغ من تناول طعام العشاء يتناولون القهوة العربية[١١٢]، يقول داوتي[١١٣]: (بعد غروب الشمس يتناولون العشاء يتكون من لحم الضأن فوق كومة من أرز التَّمن، المضاف إليه الزبد، ومتبَّل بالبصل، ونوع من الكاري).

---

(١١٠) داوتي: ترحال، ٨٧/١/٢. من الأصناف التي اشتهرت بها المنطقة، ويأتي على القائمة الرئيسة الحنيني الذي يعجن من أفخر أنواع التمور مع السمن البري، بالإضافة إلى الثريد والرغفان والمقشوش، ومن أشهى الأطباق التي يمكن أن تتناولها على الغداء الجريشة والمطازيز التي يطلق عليها القريصات، والمرقوق المكون من الخضار واللحم ورقائق العجين، والكبيبا وهي مكونة من ورق العنب والأرز والخضروات. www.alrassxp.com

(١١١) داوتي: المرجع السابق، ٤٣١/٢/١، ٤٤٦.

(١١٢) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤١

(١١٣) نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٥.

ومن طعامهم اليومي أيضًا طبق تركي (يطلقون عليه اسم "البلاو" – وهم يقولون هنا: إن ذلك الطبق جاء في عهد "تيمور لنك"–، ويتكون من الأرز المسلوق ولحم الضأن)[١١٤].

أما عن الخضروات والسَّلطات فهم مقلون منها، وفي ذلك يقول داوتي[١١٥]: (والسَّلطات هؤلاء الناس لا يأكلون كل هذه الأشياء الخضراء!).

وكان البعض منهم يشربون ما يسمى "دم الكروم"، أو "ماء العنب"، وهو عبارة عن عصير العنب المركز يأتون به من بساتينهم[١١٦].

ويصف داوتي[١١٧] طريقتهم في الولائم وترحيبهم بضيوفهم لتناول الطعام بأنهم عندما يعزمون على أحد لتناول الطعام يقولون: "مد يدك، ثم سمّ "بالله". ويتناولون طعامهم باستخدام أصابعهم، ويجلسون لتناول الطعام فترة لا تزيد على ثماني أو عشر دقائق، يصلون بعدها إلى الشبع التام؛ وهنا يقدم العبد سلطانية الماء، ليُشرب منها؛ ثم ينهضون واقفين بعد ذلك ليقول كل واحد منهم: "الحمد لله، ثم ينصرفون بعد؛ لغسيل أفواههم وأيديهم بالصابون المبشور، ثم يعودون إلى أماكنهم منتعشين لتقدم لهم القهوة البهيجة[١١٨].

---

(١١٤) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٦. وانظر www.hummyfood.com

(١١٥) نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٣٨

(١١٦) داوتي: نفسه، ٤٥٣/٢/١.

(١١٧) ترحال، ٤٣١/٢/١، ٤٤٦.

(١١٨) داوتي: المرجع السابق، ٤٣١/٢/١، ٤٤٦.

المحور الثالث: ملامح من الأوضاع الاقتصادية في حائِل من خلال رحلة داوتي:

شهدت حائِل فترة حكم محمد بن الرشيد رخاءً اقتصاديًّا ملحوظًا، نتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعها ابن الرشيد، فقد فرض الأمن والأمان على ما تحت يده من مناطق، فكان الناس ينعمون بالطعام في ظل حكمه، ويحسون بالأمان، ويرون كل شيء يزدهر من حولهم(١١٩)، كما شحذ الهمم لدعم الاقتصاد وازدهاره في كافة المجالات الزراعية والرعوية والصناعية والتجارية، وفيما يلي بيان ذلك:

الزراعة والرعي:

انتشرت في منطقة حائِل المزارع والحقول، وكان المزارعون يذهبون إلى أعمالهم عند شروق الشمس(١٢٠)، ومن المناطق الزراعية قرية قصر عربية، ويزرع فيها النخيل والقمح (١٢١)، وقرية الوسيط ويزرع فيها الحبوب(١٢٢). كما انتشرت الحقول ما بين السويفلى والوسيط(١٢٣). كما وجدت بمنطقة حائِل عدة مزارع خاصة تعود ملكيتها لأمراء وأعيان البلد، كان أفضلها تلك التي يمتلكها أمير حائِل.

---

(١١٩) داوتي: ترحال، ٤٣١/٢/١، ٤٤٨.

(١٢٠) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٦١.

(١٢١) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧١.

(١٢٢) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٣.

(١٢٣) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

وكذلك مزرعة عبيد، وهي مزرعة نخيل كبيرة، استخدم القائمون عليها أفضل الأساليب في زراعتها، فكانت سيقان النخيل مزروعة على شكل صفوف بينها مسافات واسعة، كما كان بها الكثير من الغزلان التي تتغذى على الجلبان الذى يجرى نثره لها كل يوم(١٢٤).

ومن المزروعات بحائِل: النخيل، والفواكه كالتين، والعنب، والليمون، والأترنج، والحبوب كالقمح والشعير والخروع، والخضروات كالبامية، والأعشاب التي تستعمل في السَّلطات(١٢٥).

والتمر في منطقة حائِل من النوع الجيد، وهو أفضل أنواع التمور في هذا البلد(١٢٦). كما تنمو في جبل أجا، شجرة يطلقون عليها اسم العرار، التي يسيل منها نوع من المستكة يشبه الصّمغ "هذه الشجرة تشبه شجرة الإثل"(١٢٧).

وكانوا يعتمدون على ماء الآبار في سقية حقولهم ومزارعهم، ولحفر بئر كبيرة يستخدمون خمسة عشر عاملًا، يتقاضى كل واحد منهم يوميًّا ما بين ثلاثة إلى أربعة قروش، وقد استغرق حفرها عشرين يومًا، وصلت تكلفة حفرها ما يقرب من عشرة جنيهات إنجليزية(١٢٨). ويعمل في جلب الماء من البئر ثلاث من

---

(١٢٤) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٦.

(١٢٥) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٥٣/٤٣٨، ٤٦٢.

(١٢٦) داوتي: ترحال، ١٤/١/٢.

(١٢٧) داوتي: المرجع السابق، ١٩/١/٢.

(١٢٨) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٧.

أفضل النياق التي تساوى الواحدة منها حوالى خمسة وثلاثين ريالاً[١٢٩]، فهم يستعملون قطعانًا من الإبل لتحريك السواني "السواقي" لجلب الماء من الآبار، وسقي مزارعهم[١٣٠].

ونتيجة للجفاف والآفات التي تصيب المحاصيل الزراعية كمرض الصدأ والذي يصيب النخيل[١٣١]؛ ترتفع أسعار المحاصيل الزراعية كالتمر والقمح[١٣٢].

كما اعتنى أهل حائِل بتربية المواشي، فكانت ترعى في مناطق عدة، منها سفوح جبل آجا، وكان البدو من شمر يرسلون مواشيهم في الصحراء المحيطة بهم[١٣٣].

ومن أفضل مواشيهم الإبل[١٣٤]، والأغنام، والخيول[١٣٥]، كما وجد بالمنطقة البقر البري والغزلان وتسمى بـ "الوضيحي"[١٣٦].

ويمتلك أمير حائِل ثروة حيوانية كبيرة، تقدر بحوالي أربعين ألفَ جملٍ من سلالة نجدية أصلية[١٣٧]. وثلاثمائة فرس، وحوالي مائة حصان، ومائة من الأمهار

(١٢٩) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٧.

(١٣٠) داوتي: نفسه، ١٦/١/٢.

(١٣١) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

(١٣٢) داوتي: نفسه، ١٦/١/٢.

(١٣٣) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٤.

(١٣٤) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٣٤

(١٣٥) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦١.

(١٣٦) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٣٩

(١٣٧) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٦٥.

الأصيلة، وهذه الثروة الحيوانية مقسمة إلى قطعان منفصلة في الصحراء؛ كما أن لدى ابن الرشيد أيضًا حواليب مائة شخص "من الخدم الدائمين" يعيشون مع عوائلهم في خيام من الشعر، يقومون على أمر هذه الحيوانات(١٣٨).

وكانت خيول الأمير ترعى بالطريقة البدوية؛ فبعد تقييد أرجل الخيل الأمامية، يجرى إطلاقها ترعى اعتبارًا من الصباح الباكر. وهذه الخيول لا تذوق طعم الشعير أو الحبوب الأخرى، ويجري اقتياد تلك الخيول في المساء إلى الخيام، إذْ يجري تقييدها أثناء الليل، ويقدم لها لبن النياق(١٣٩).

ويعتمد في رعي المواشي على حالة نمو الأعشاب البرية في الصحراء على مدار العام (١٤٠). وحين تشتد برودة الجو، وتنعدم المياه، وتجف المراعي نتيجة لسوء الأحوال الجوية، يموت الكثير من المواشي كالإبل والأغنام (١٤١)، وتتضاعف أسعار المواشي، ويندر وجودها(١٤٢).

كما وجد بمنطقة حائِل العديد من الحيوانات المنزلية "المستأنسة"، فكانوا يربون في كل القُرْى تقريبًا نوعًا من البقر الحلوب، الذي يستعملونه في جر المحاريث، ويستعملون القطاط في مطاردة الفئران، كما يربون الدواجن أيضًا(١٤٣).

---

(١٣٨) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٦٥.

(١٣٩) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٥.

(١٤٠) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٥.

(١٤١) داوتي: نفسه، ٦٩/١/٢.

(١٤٢) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٨.

(١٤٣) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

كما وجدت الحمير والبغال، وكانت تستخدم للركوبة والتنقل، ونقل الأحمال(١٤٤). كما وجدت الكلاب، التي لم تكن تظهر أثناء النهار في أية من قُرْى نجد، ولكن بعض الكلاب الضالة التي تعيش خارج الواحات تتجول في الشوارع أثناء الليل(١٤٥).

---

(١٤٤) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٧٠.

(١٤٥) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

السوق والتجارة:

وصف داوتي[146] سوق حائِل بأنه (سوق أعراب! "إنه صغير إذا ما قارنَّاه بالأسواق التي في المدُن الرئيسة في هذه الدنيا).

أما عن مكان السوق فيمتد من المسهاب "الميدان العام" إلى البوابة الداخلية في اتجاه قفار، مسافة مائتي خطوة تقريبًا، والدكاكين توجد على الجانبين، وهى عبارة عن مخازن صغيرة للبضاعة مبنية في الخلف، يصل عدد هذه الدكاكين إلى ما يقرب من مائة وثلاثين دكانًا، ولا يدخلها الضوء إلا من مدخلها فقط، وهي مملوكة، وتستأجر من الأمير[147].

ويفتح السوق دكاكينه للمرتادين بعد ساعة من شروق الشمس[148]. وهو مقسم إلى أسواقٍ صغيرة متخصصة، فهناك سوق القصابين، وسوق الحطابين، وعند نهاية شارع السوق، توجد سوق القمح، حيث تباع فيها أيضًا أحمال الحطب، والعلف البري يجلبونه من الصحراء.

وسوق المواشي: وهو مخصوص لبيع الأغنام والإبل، وما إلى ذلك[149].

وفي منطقة منخفضة من السوق العام، تجلس البائعات محجبات، تحت مظلة، وأمامهن أسبتة، منذ طلوع الشمس، ليبعن التمر والقرع العسلي؛ كما أن البعض منهن تبعن أشياء الزينة النسائية، التي يجلبنها من الشمال.

---

(١٤٦) ترحال، ٤٣١/٢/١، ٤٤٩.

(١٤٧) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٦١.

(١٤٨) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦١.

(١٤٩) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٦.

كما كانت تأتيهم البضائع من العِرَاق وإيران وبعض المناطق الخَلِيْجية(١٥٠).

وكان سوق القصابين في منطقة تقع خارج بوابة السوق الخارجية، ويمتاز ببيت اللحوم الطازجة الطرية، يقول داوتي(١٥١) في ذلك: (ولحم هؤلاء القصابين الطري سرعان ما يبتاعه الناس خلال ساعة واحدة من شروق الشمس).

وبالسوق سلع وبضائع متنوعة ومختلفة، منها ما هو محلي الصنع، ومنها ما هو من مناطق من داخل الجزيرة كنجد، والجوف، والقَصِيْم، والمَدِيَنَةِ المُنَوَّرَةِ، ومَكَّةَ(١٥٢)؛ ومنها ما هو مستورد من بعض البلدان الأخرى؛ فلقد كان لحائِل علاقات تجارية مع العِرَاق ومدنها (بَغْدَاد والبَصْرَة)، ومع بلاد فارس والمناطق الخليجية، كما كانت لها علاقات تجارية مع بمباي في الْهِنْد، وكذلك مع سوريا ومصر، وبريطانيا وغيرها، فيذكر داوتي(١٥٣) أن هناك أشياء أوروبية كثيرة داخلة ضمن الاستعمالات الحياتية الضرورية في حائِل، ومنها الفؤوس التي يستخدمها الناس في الزراعة، والعتلات الحديدية، والأقمشة وهي من البفتة، وتصنع في مانشستر وبومباى، أيضًا كانوا يتاجرون في الخيول العربية الأصيلة في بومباي بالْهِنْد، ومصر(١٥٤).، كما يؤكد على أن هناك الكثير جدًّا من البضائع التي يتجر

(١٥٠) داوتي: نفسه، ١٩/١/٢.

(١٥١) نفسه، ١/٢/ ٤٦٢.

(١٥٢) داوتي: ترحال، ٧٤/١/٢.، ٧٥؛ ١/٢/ ٤٦٦.

(١٥٣) المرجع السابق، ١٨/١/٢.

(١٥٤) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٦٦؛ ٦٨/١/٢.

بها في الخليج، في أسواق حائِل[١٥٥]. وكانت السلع البغدادية تجلب من أسواق حائِل، وتباع في قُرْى نجد[١٥٦].

وكانت طائفه التجار من بين طبقات المجتمع الحائِلي ميسورة الحال خاصة تجار الجملة، فكان دخلهم كبيرًا، فعلى سبيل المثال كان التاجر السيد محمود واثنين أو ثلاثة آخرين من تجار الجملة يربو دخل الواحد منهم على ألف ريال[١٥٧].

فيصف داوتي[١٥٨] بعض تجار حائِل الذين تقابل معهم بأن هذا (الرجل له بيت طيب في البلدة، كما أن له محلًّا في السوق، يبيع فيه الأقمشة والتمور والبن للبدو الرحل). وقد استحوذ تجار المشاهدة على عصب التجارة بحائِل، وجنوا الثروات الهائلة من جراء ذلك، منهم التاجر سيد محمود، كبير المشاهدة، أو كبير تجار مشهد، كل تجارة السوق -وكلها سلع من بلاد الرافدين- في أيدى هؤلاء المشاهدة تقريبًا)[١٥٩].

(١٥٥) داوتي: نفسه، ١٨/١/٢.

(١٥٦) داوتي: نفسه، ٤٢٠/٢/١.

(١٥٧) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٥٧.

(١٥٨) نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٤

(١٥٩) داوتي: نفسه، ٤٥٥/٢/١.

كما عَرفت حائِل كبار التجار سواء في المواشي أو الحبوب ونحوهما(١٦٠)، فكان أمير حائِل من كبار تجار الخيول والمواشي في المنطقة، كما كان التاجر جار الله من كبار تجار الحبوب(١٦١).

أما عن النقود في حائِل فوجد التعامل بالنقد الأجنبي؛ الريالات الأسبانية، والدولار الماريا تريزى(١٦٢)، والكراون التركي المجيدي(١٦٣)؛ ويطلقون "دبلون" على قطعة النقود التي تساوى خمسة جنيهات تركية، ويطلقون على الجنيه الإنجليزي اسم "جنيَّات"، ويقولون له "بنتو"، ويطلقون اسم "ليرة فرنساوي" على قطعة النقود التي تساوى عشرين فرنك(١٦٤)، أما بالنسبة للنقود المعدنية المصنوعة من الفضة، فلديهم في أسواق حائِل قطعة معدنية قيمتها ست

---

(١٦٠) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٦٦؛ ٢/١/٦٨.

(١٦١) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/٤٥٢.

(١٦٢) دولار فضة ماريا: عملة فضية كانت تستخدم في التجارة العالمية باسم الملكة ماريا تيريزا التي حكمت النمسا وهنغاريا وبوهيميا عام ١٧٤٠م، استخدمت عملة تالر ماريا تريزا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية في أماكن مختلفة من العالم العربي، وبخاصة السعودية واليمن ومسقط وعمان والْهِنْد.

(١٦٣) الريال المجيدي هي عملة عثمانية تساوي ٢٠ قرشًا، أي أن الليرة العثمانية تساوي ٥ مجيديات، سميت العملة بهذا الاسم نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد، وقد سك الريال المجيدي من الفضة

(١٦٤)كان الفرنك الفرنسي العملة الرسمية لدولة فرنسا حتى عام ١٩٩٩م، وفي اليوم الأول من عام ١٩٩٩م، ولدت عملة اليورو رسميًّا، واعتبارًا من الرابع منه، فإن ٨٠% من العملة المتداولة في الدول الداخلة في منطقة اليورو أصبحت العملة الموحدة: الدفع بين البنوك، وقروض الدولة، وكذلك أسعار الأسهم والادخارات باليورو، وقد بات ممكنًا الدفع في عمليات الشراء بعملة اليورو بواسطة الشيكات. خرج الفرنك الفرنسي من التداول عام ٢٠٠١ وتم استبداله باليورو نهائيًّا.

بنسات، كما أن لديهم أيضًا بعض العملات المعدنية الفارسية، ولديهم عملة معدنية أخرى تشبه أختام العالم الإغريقي القديم(١٦٥).

وعن أسعار السلع والمواد الغذائية؛ كشف لنا دواتي(١٦٦) عن البعض منها، وذكر أن السلع في سوق حائِل رخيصة نوعًا ما، إذا ما قورنت بالأسواق الأخرى كسوق جدة على سبيل المثال، حيث (كان سعر السمن رخيصًا في ذلك العام، إذْ كان الصاع يباع بريال واحد في حائِل؛ ولكن "خلفًا" كانت لديه أخبار تفيد أن صاع السمن يباع في جدة بريالين في ذلك الوقت)، وكانت السلع في سوق حائِل يمكن شراؤها بأثمان زهيدة، فمما قالة عن أسعار التمر بحائِل: (كان بوسعي الحصول على أجود أنواع التمور، عن طريق شرائها من السوق بثمن زهيد جدًّا)(١٦٧)، وقد ذكر داوتي أثمان بعض السلع، فمن الملابس: الثوب الرجالي، وثمنه شلنان، والعباءة من الصوف الخشن ثمنها تسعة شلنات، الغترة ثمنها ستة بنسات (١٦٨).

وصاع(١٦٩) السمن يباع بريال واحد(١٧٠).

---

(١٦٥) داوتي: ترحال، ١٨/١/٢.

(١٦٦) المرجع السابق، ٩٣/١/٢،

(١٦٧) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٦٢.

(١٦٨) داوتي: المرجع السابق، ٣٢/١/٢.

(١٦٩) الصاع يساوي أربع أمداد، والمد يعادل ١,٠٥ لترًا، أي ما يقارب ٨١٢,٥ غرامًا من القمح. وعليه فالصاع يساوي تقريبا ٣,٢٥ كلغم. فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص ٧٤؛ ضيف الله يحيى

وعن أثمان المواشي: ثمن الخروف تسعة شلنات، ثمن العنزة ستة شلنات، والناقة بستة أو سبعة ريالات(١٧١).

أما أثمان اللحوم: رطل(١٧٢) اللحم الضأن لا يقل عن بنسين، والفخذة الصغيرة من لحم الضأن بستة بنسات(١٧٣).

ونتيجة لانخفاض أسعار اللحوم في حائِل، كان البدو يعودون بماشيتهم الصغيرة، مؤثرين عدم بيعها على تلك الأسعار المتدنية، واقتيادها عبر مسافة طويلة إلى سوق المدِينَةِ المنَوَّرَةِ، حيث كانت أسعار الغنم فيها مرتفعة عن حائِل(١٧٤).

ومن عاداتهم ترقب وصول قافلة الحج العِرَاقي، التي تضم حجاج العِرَاق وفارس ومناطق الجزيرة التي تمر عليها مثل الجوف(١٧٥). فما أن تصل مقدمة القافلة إلى حائِل(١٧٦)، يبدأ الناس بالتجمع لاستقبال القافلة، فيجتمعون من

الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمَكَّةَ المكَرَّمَةِ خلال الفترة "٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧"، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٥.

(١٧٠) داوتي: ترحال، ٩٣/١/٢،

(١٧١) داوتي: المرجع السابق، ٧٣/١/٢.

(١٧٢) الرطل: معيار يوزن به، وهو مكيال أيضًا، ويساوي ٤٠٦٢٥ جرامًا. علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، (ط٢، دار الرسالة، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص ١٧.

(١٧٣) داوتي: ترحال، ١/٢/ ٤٦٢.

(١٧٤) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٦٢.

(١٧٥) داوتي: ترحال، ٧٤/١/٢.

(١٧٦) داوتي: المرجع السابق، ٧٤/١/٢.

حائِل ومن كافة القُرْى إما للانضمام لها، أو الاتجار معها، فتشهد حائِل قدوم الكثير من التجار للمتاجرة ببضائعهم مع القافلة، حتى أن داوتي شاهد تجار من القَصِيْم يقطعون أكثر من ألف ميل لبيع تمورهم على القافلة[١٧٧]، كما كان البدو يحضرون معهم التمور والإبل والسمن وغيرها[١٧٨].

وكانت القافلة تدفع إتاوة (مقدارها مائة ريال عن كل فرد من أفراد القافلة)[١٧٩]. مقابل الحراسة المشددة التي ترافقها من قبل رجاجيل ابن الرشيد من العِرَاق إلى مَكَّةَ مرورًا بحائِل، فيذكر داوتي أنه كانت (هناك سرية من "رجاجيل" ابن الرشيد تكون بصحبة القافلة للدفاع عن الحج)[١٨٠].

ومن بين الباعة الكثير من البدو الذين فضلوا حياة الاستقرار في القُرْى عن حياة الترحال فكانوا يشترون التمور والقمح عند الحصاد ويبيعونه في فترات لاحقة، ويحملون تجارتهم وسلعهم على الحمير، ويذهبون للاتجار بها مع الأعراب، وعندما ينتهون من بيع بضاعتهم يعودون إلى قراهم، ومعهم مكاسبهم المتواضعة من السمن والنقود[١٨١].

---

(١٧٧) داوتي: نفسه، ٧٤/١/٢.

(١٧٨) داوتي: نفسه، ٧٤/١/٢.

(١٧٩) داوتي: نفسه، ٧٨/١/٢.

(١٨٠)داوتي: نفسه، ٧٧/١/٢.

(١٨١) داوتي: نفسه، ٨٩/١/٢.

الحرف والصناعات[١٨٢] والمهن:

تناول داوتي بعض الحرف التي انتشرت في حائِل إلا أنه لاحظ أن: (الحرفيين قلائل في حائِل، وهم من طائفة الحدادين، أي من أولئك الذين يعملون في المعادن)[١٨٣].

كما اعترف أن أهل جبل شمر من البدو لا يصلحون لمثل هذه الأعمال الحرفية[١٨٤].

وبالرغم من ذلك وجدت حرف ومهن كثيرة امتهنها أبناء حائِل، فقد وجد بها النجارون الذين كانوا يحصلون على الخشب من الأشجار كشجر "الإثل"، ثم يحولونه بعد ذلك الى أطباق صغيرة هشة، كما يصنعون من الخشب مفاتيح الأبواب، وغيرها[١٨٥].

وهناك من يمتهنون حرفة البناء وحرفة النجارة، ولكن بطريقة بدائية، إذْ ليست لديهم الأدوات أو العدد اللازمة لذلك[١٨٦].

---

(١٨٢) الحرفة: اسْمٌ مِنَ الاحْتِرَافِ وَهُوَ الاكْتِسابُ، وهي كل عمل شريف يشتغل به الإنسان ويمارسه ليؤدي خدمة لمجتمعه حتى صار له كيفية خاصة في ممارسته بتواجد التوافق العضلي والذهني الذي يؤدي لإنتاج تعود عليه بالنفع، والصِّناعةُ: هي حِرْفَةُ الصانِعِ، وعَمَلُه الذي يرتزق منه. عبد العزيز بن إبراهيم العمري: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسولﷺ، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٤.

(١٨٣) داوتي: ترحال، ١٤/١/٢.

(١٨٤) داوتي: المرجع السابق، ١٤/١/٢.

(١٨٥) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢، /٨٣.

(١٨٦) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

وهناك بعض المليسين الذين يقومون بالأعمال الجسَّية أو إن شئت فقل: الجبسية، وهم يجلبون ذلك الجبس من الجبال ويعثرون عليه على شكل مسحوق، ثم يخلطونه بالماء ويستعملونه في حواف الوجارات وتبطين جدرانها: ويتحول الجبس بعد ذلك إلى قشرة صلبة بيضاء اللون، تلمع مثل الرخام، وتتحمل النار[١٨٧].

وهناك الصاغة، وكان أشهرهم شخص يدعى غانم وأخوه غينم، كانا صائغي الأمير، يصفهم دواتي بأنهم (ثريان تمامًا، ومن طائفة الصناع)[١٨٨]. (وهما مشغولان بصناعة أشياء للأمراء، وذلك فيما يتعلق بصناعة السيوف وتجليد مقابضها بالفضة والذهب، كما كانا مشهورين أيضًا بتجليد "دباشك" البنادق بصفائح الفضة والذهب، وكان يجرى إرسال جميع السيوف والبنادق الفتيلية التي كان ابن الرشيد يأخذها من البدو أثناء الغزو، إليهما لإعادة تشكيلها، ثم وضعها بعد ذلك ضمن سلاح القلعة ومن بين هذه السيوف توجد بعض السيوف الفارسية و الهِنْدية الممتازة، التي يتسلح بها بعض حراس الأمير)[١٨٩].

وهناك العمال الذين يجمعون الحطب والعلف، ويطلق عليهم اسم "القصمان"، وهم عمال كدّادون يفدون على حائِل من القَصِيْم[١٩٠].

---

(١٨٧) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

(١٨٨) داوتي: نفسه، ٤٥٠/٢/١.

(١٨٩) داوتي: ترحال، ٤٥٠/٢/١.

(١٩٠)داوتي: المرجع السابق، ١٤/١/٢.

والحطابون: وهم طائفة تقوم بجمع الحطب من سهول جبل أحا، وبيعه في سوق حائِل[191].

وهناك صانعو سُرُج الحيوانات: منها تلك التي توضع على ظهور الإبل، والتي امتازت بتفردها واختلافها عن مثيلتها في تيماء وفى المناطق الغربية، من ناحية أن ركائزها تكون مرتفعة إلى الأعلى[192].

والخيمية، وهم مختصون في صنع الخيام وبيعها[193]، وما يتعلق بها من حبال وأوتاد وغيرها.

كما وجد بحائِل الدلالون أو السماسرة"، الذين يعملون في كل ما هو معروض للبيع، سواء أكان جديدًا أم قديمًا، أقمشةً أم سلاحًا أم غير ذلك، يصيحون وينادون في كل أرجاء السوق، وينشرون بضاعتهم أمام كل من يقابلونهم، ويدخلون الدكاكين بكل هذه الجلبة ليبيعوا بضاعتهم بأعلى سعر[194].

---

(١٩١) داوتي: نفسه، ٩٠/١/٢. لمعرفة المزيد عن الحرف والصناعات التقليدية بحائِل انظر: جريدة الرياض، الخميس، ٢٧ ذي القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٥م، العدد ١٣٧٠٢.

(١٩٢) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

(١٩٣)داوتي: نفسه، ١/ ٢/ ٤٦٧.

(١٩٤)داوتي: نفسه، ١/ ٢/ ٤٦١.

إضافة إلى التجار، والمزارعين، ورعاة المواشي وبائعيها، وحفاري الآبار والعيون والبرك والقبور[١٩٥]، والجزارين، وقد علق داوتي على هذه الحرفة فقال: (وحرفة الجزارة؛ بالرغم من أن البدو كلهم جزارون، لا يمارسونها في نجد)[١٩٦].

كما كان للنساء نصيبهن في العمل وامتهان الصنعة، فقد انتشرت بين النساء في حائِل صناعة الخياطة والتطريز، وذلك باستعمال الحرير والخيوط المعدنية، فكن يطرزن العباءات (البشوت) التي تجلب على شكل قطع من الجوف وبَغْدَاد[١٩٧]. كما احتكرت نساء حائِل حرفة الخصف، فكن يجدلن من سعف النخيل نوعًا من الحصير الذى يستعملنه في المنازل، شأنهن في ذلك شأن الحريم في الواحات الأخرى كلها[١٩٨].

---

(١٩٥) داوتي: ترحال، ٤٦٦/٢/١، ٤٦٧.

(١٩٦) داوتي: المرجع السابق، ١/٢/ ٤٦٢.

(١٩٧) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢.

(١٩٨) داوتي: نفسه، ١٤/١/٢. ولمعرفة المزيد عن الأنشطة النسائية انظر: جريدة الرياض، الخميس، ٢٧ ذو القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٥م، العدد ١٣٧٠٢.

المحور الرابع: ملامح من الأوضاع العلمية في حائِل من خلال رحلة داوتي:

تميز مجتمع حائِل بالمحافظة على تقاليده العربية الأصيلة والمتفقة بشكل عام مع تعاليم الإسلام السمحة، فكانوا ملتزمين بتطبيق الشريعة الإسلامية وما نادت به من أمور تتعلق بتطبيق الدين وإظهار شعائره، كحرصهم على الجُمع والجماعات، والسعي إلى المساجد وأداء الصلوات الخمس المفروضة في المسجد الكبير، فيذكر داوتي أنه (وعندما يسمع الناس صوت المؤذن لصلاة العشاء،...، يخرج الجميع لأداء الصلاة في المسجد)(١٩٩).

كما عُرف عن المجتمع الحائِلي حبه للعلم والسعي له بهمة ونهم، حسب ما يتوفر له من فرص وإمكانات، فيذكر داوتي أنه: (وفى نجد وجدت أن دراسة الحروف الأبجدية والقراءة والكتابة تحظى بتكريم كبير بين كبار تجار عنيزة، ولكن هذه الدراسة كانت ما تزال في بدايتها في حائِل)(٢٠٠).

---

(١٩٩) داوتي: ترحال، ٤٣١/٢/١، ٤٤٧.

(٢٠٠) داوتي: المرجع السابق، ٦٧/١/٢. لم يكن تفشي الجهل في حائِل منتشرًا كما يصوره داوتي، فقد انتشرت المدارس وطلبة العلم، كما وُجد المعلمون والعلماء، ولكن ما لم يلحظه داوتي –أو تغافل عن ذكره– أن التعليم الذي ساد حائِل هو التعليم الديني القائم على حفظ كتاب الله وكتب الحديث وأمهات كتب الفقة واللغة والتاريخ، أما التعليم العملي كالفني والصناعي فلم يكن له أثر في حائِل، بل في الجزيرة العربية بأكملها، ولم يكن ذلك ناجمًا عن جهل أو تقصير من قبل الحكام ورعاياهم بقدر ما كان إهمالًا، وغضًّا للطرف من الدولة العثمانية باسطة نفوذها على هذه المناطق، والمسؤول الأول والأخير عن تطورها ونهضتها العلمية.

ويؤكد دواتي[٢٠١] على سعي الأهالي للتعليم من خلال إقامتهم المدارس النظامية، لضمان استمراريتها، وتدفق الطلبة عليها، فيذكر أنه وجد في حائِل أربع مدارس عامة، كان ناظر إحداها شابًّا صغيرًا، ويدعى "رشيد".

ومن شدة حرص بعض أهالي حائِل على تعليم أبنائها لم تكتفِ بتعليم المدارس؛ وأحضرت لأبنائها معلمين خصوصين لزيادة معارفهم وعلومهم، والتأكد من جودة إتقانها، فعلى سبيل المثال كان لدى حمود مدرس خاص لابنه ماجد، وكان ذلك المعلم ذا ثقافة واسعة[٢٠٢].

وكانت الإمارة هي التي تدفع أجر ناظر المدرسة، فقد كان يتناول طعامه في "المضيف"، كما كان يتلقي، إلى جانب الطعام، بضع ريالات كل عام، وغيارًا من الملابس[٢٠٣].

وقد وجدت طبقة متعلمة في حائِل لا بأس بها، خاصة تلك التي تلقت العلوم الدينية والأدبية وغيرها على أيدي المشايخ والعلماء، منهم الأمير محمد، وبعض أهل بيته وجماعته، كعبيد، وحمود، وناصر، وماجد، وغيرهم، ومنهم تجار حائِل وأبناؤهم، ويشهد داوتي على ذلك؛ فيقول: (يقال إن الأمير محمد يجيد القراءة والكتابة والاطلاع على الكتب العربية، ويقال أيضًا إنه شاعر رقيق)[٢٠٤].

---

(٢٠١) نفسه، ٦٧/١/٢.

(٢٠٢) داوتي: نفسه، ١/٢/ ٤٥٦.

(٢٠٣) داوتي: ترحال، ٦٨/١/٢.

(٢٠٤) داوتي: المرجع السابق، ٤٣١/٢/١، ٤٣٤

كما عرف عن بعضهم حبهم للعربية وآدابها، وتأثرهم باللون من ألوان الشعر غير المتقيد، بقواعد الإعراب، وإجادتهم لهذا الشعر نظمًا وإلقاءً، منهم الأمير حمود ووالده، فقد كانا شاعرين من شعراء الحماسة في المعارك الحربية(٢٠٥).

كما وجد بحائِل بعض المكتبات الخاصة، منها على سبيل المثال:

– **مكتبة الأمير محمد آل رشيد**، فقد كان يمتلك مكتبة كبيرة حوت أمهات الكتب منها كتاب في التاريخ، وهو "أخبار الدول وآثار الأول"، وهو كتاب كبير ضخم وضع على رف المكتبة، وكان مغلفًا بغلاف أحمر(٢٠٦).

– وذكر أن لدى أمير حائِل (ما يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف من المجلدات) (٢٠٧).

–كان لأحد حاشية الأمير (ويدعى حمود) مكتبة علمية كبيرة، حتى أنه فكر في موضوع طباعة الكتب وسأل داوتي عن ذلك، فكان رده عليه: (إن بوسعه أن يشترى لنفسه مطبعة من بَغْدَاد، نظير مبلغ ليس كبيرًا من المال)(٢٠٨).

– **مكتبة قاضي حائِل**، وفي اعتقادنا أنها تضم أمهات الكتب الدينية والعربية والتاريخية؛ لاحتياج القاضي لها في عمله، ودروسه العلمية، كما أنه كان

---

(٢٠٥) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٤٧.

(٢٠٦) داوتي: نفسه، ٤٣١/٢/١، ٤٣٤

(٢٠٧) داوتي: نفسه، ٦٧/١/٢.

(٢٠٨) داوتي: نفسه، ٦٧/١/٢.

قد انتهى من تأليف كتاب في الأنساب، فلا بد أن يعتمد في تأليفه على العديد من الكتب، لذا نرجح بوجود مكتبة له عامرة، وقد ذكر داوتي عن مؤلف القاضي، وأنه سمع أنه انتهي من تأليف كتاب (عن شجرة من أشجار السلالات النسبية، أوضح فيها السلالات العربية النسبية المختلفة)(٢٠٩).

– **مكتبة ناظر مدارس حائِل المعلم رشيد:** فقد زاره داوتي في مسكنه، وأحضر له رشيد كتابًا من تأليف أحد المختصين في العلوم الإسلامية، وقد دارت بينهما مناقشة حول نقاط معينة من الكتاب(٢١٠).

– **مكتبية الأمير عبيد بن علي آل رشيد،** يذكر داوتي أنه شاهد بقهوة عبيد، ما لا يزيد على اثني عشر كتابًا داخل أكياس مصنوعة من قماش القطن، ومجلدة بجلود حمراء اللون من الجلد الطبيعي(٢١١).

وكان لجهود الشباب المتعلم في حائِل دور ملموس في تعليم الناس، وبخاصة الأميين والجهلة منهم؛ فقد انبرى ناظر المدرسة المعلم رشيد لتعليم الناس،

---

(٢٠٩) داوتي: ترحال، ٦٥/١/٢.

(٢١٠) داوتي: المرجع السابق، ٦٨/١/٢.

(٢١١) داوتي: نفسه، ٦٧/١/٢؛ لقد عُرف عن الأمير عبيد بن علي بن رشيد حبه لجمع الكتب وإيقافها على طلبة العلم في حائِل، من ذلك "مختصر الجامع الصغير"، كان كلكًا لحسن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد كتب على غلافه ما يلي: دحل هذا الكتاب المبارك في ملك الفقير الحقير إلى الله سبحانه وتعالى عبيد بن علي بن رشيد، ووقف هو وقف لا يباع ولا يعطى ولا يضهر حايل على طالب العلم في بلده حائِل، ولا يضهر إلى سائر البلدان، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم"، وعليه ختم عبيد بن رشيد، ويوجد الكتاب في مكتبة المعهد العلمي في حائِل، العثيمين: نشأة إمارة آل رشيد، ص ٨٣.

فكان يذهب إليهم يوميًّا في القهوة لإعطائهم الدروس العلمية، وفي ذلك يقول داوتي: (كان يردد في كل يوم على جمهور الجهلة الجالسين في القهوة تلك الأقوال المأثورة) (٢١٢).

وقد أثرت بعض من ثقافات الشعوب التي تعامل معها أهل حائِل واحتكوا بها -بسبب الأسفار والتجارة- في ثقافتهم، كدخول بعض الأطعمة مطبخهم أو بعض اللهجات على لغتهم فيذكر داوتي (أن أهل حائِل يستوردون مع بضاعتهم الأجنبية بعض الكلمات الخليجية، وبخاصة تلك الكلمات المأخوذة من اللغة الفارسية، التي منها على سبيل المثال، عندما يتحدثون عن الإبل، إذْ يقولون: "شيتر" ليعبرون بها عن الثروة المكونة من الإبل، وذلك بدلًا من الكلمات العربية التي من قبيل: "هجن، ذلول، ركاب، حادوج، مطية، رحول، حاشي، حرة)(٢١٣).

---

(٢١٢) داوتي: نفسه، ٦٨/١/٢.

(٢١٣) داوتي: ترحال، ١٩/١/٢.

وتكتب بالفارسية: شتِر. انظر قاموس المعاني بالفارسية.

www.almaany.com/ar/dict/fa-ar

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، منها:

- ❖ أهمية كتاب داوتي، في أنه يحوي تفاصيل مهمة عن مدينة حائِل، يرويها المؤلف من خلال مشاهداته بعض أحداثها بعينيه وسمعه إياها بأذنيه.
- ❖ صور لنا المؤلف تصويرًا أقرب للدقة عن طبيعة حائِل الجغرافية، من خلال موقعها ومناخها وتضاريسها، كما وصف مكوناتها المعمارية وبعض قراها وضواحيها.
- ❖ كشفت الدراسة عن بعض الملامح السياسية في حائِل، منها أن الفترة التي زار فيها داوتي حائِل كان يحكمها الأمير محمد بن الرشيد، والذي احتوى بكرمه وحسن ضيافته الرحالة داوتي، وأن النسيج السكاني لمدينة حائِل يتكون في معظمه من قبائل عربية، كما يوجد بها عناصر أخرى غير قبلية استقرت بها نتيجة لظروف خاصة بها.
- ❖ أكد البحث على جملة مما كان يتمتع به أهل حائِل من كريم الأخلاق وجميل الصفات.
- ❖ تبين من خلال الدراسة مدى اعتناء أهل حائِل بنظافتهم، ابتداءً بمدينتهم ومرورًا بمساكنهم، وانتهاءً بعنايتهم الشخصية.
- ❖ كشف البحث عن ازدهار مدينة حائِل في كافة المجالات الزراعية والرعوية والصناعية والتجارية. ورخصة الأسعار بها وتوفر السلع في أسواقها، نتيجة اختلاطهم وتعاملاتهم الداخلية والخارجية.

- ❖ تبين من خلال الدراسة أن الحائِليات كان لهن دورٌ عظيمٌ في مجتمعهن، فقد كشفت الدراسة -على سبيل المثال- أنه كان لهن نصيبهن في العمل وامتهان الصنعة.
- ❖ أكد البحث على مدى حب المجتمع الحائِلي للعلم والسعي له من خلال إنشاء المدارس وإقامة المكتبات.

التوصيات:

- ❖ لقد اجتذبت شبه الجزيرة العربية منذ القدم اهتمامات العلماء والباحثين والرحالة. وبما أنهم سطروا بعضًا مما رأوه في شبه الجزيرة العربية في عصرهم، فإن تلك الكتابات تعد مصدرًا مهمًّا من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية، وسجلاً شاملاً لها، ومادة علمية قيمة تساعد الباحثين في التعرف على جوانب كثيرة من تاريخها؛ لذا يقتضي الحفاظُ على تاريخها الحرصَ على تلك الكتابات، ودراستها دراسةً موضوعية تكشف عن جوانبها المختلفة مع أخذ الحذر في التعامل مع ما جاء فيها من معلومات قد تكون مغلوطة لأسباب عدة يراد منها إثارة الشبهات على سبيل المثال.
- ❖ كما تدعو الدراسة إلى دعم مثل هذه الدراسات من خلال المراكز البحثية والكراسي العلمية، لما توفره هذه المحافل من إمكانيات تتناسب ومثل هذه الدراسات.

هذا والله أسأل تمام كل نعمة وكمال كل منة..

د. حياة بنت مناور الرشيدي

فهرس المصادر والمراجع:

أولا: المصادر والمراجع:

- ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.
- أحمد فهد العريفي: مقامات حائِلية: لمحات تاريخية اجتماعية، ونصوص شعرية، جامعة أنديانا، ٢٠٠٧م.
- تشارلز م. داوتي: ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم، المركز القومي، ط٢، ٢٠٠٩م.
- حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية "شمال المملكة، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧هـ.
- خليفة عبد الرحمن المسعود: موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية دراسة تاريخية وثائقية، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠٤م.
- ضيف الله بن يحيى الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمَكَّةَ المكرمة خلال الفترة "٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧"، جامعة أم القُرْى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مَكَّةَ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- عبد الله بن صالح العثيمين: نشأة إمارة آل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، و ط٢، ١٩٩١م.
- عبد الرحمن بديوي: موسوعة المستشرقين، ١٩٩٢م.

- عبد العزيز بن إبراهيم العمري: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- عقيل بن ضيف الله بن عمر القيمي: أقوال ومسائل في أخبار منطقة حائِل: دار الفجر الإسلامي، القاهرة.
- علي بن محمد الهندي: زهر الخمائل في تراجم علماء حائِل، جدة، ١٣٨٠هـ.
- علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ط٢، دار الرسالة، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.
- فهد صالح سليمان الحواس: عمارة المنزل بمنطقة حائِل، جامعة الملك سعود، كلية السياحة والآثار، قسم الآثار، ١٩٩٦م.
- ليلى صالح البسام وتهاني ناصر العجاجي: أزياء النساء التقليدية في المنطقة الشمالية من المملكة العربية السعودية، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد ١٨؛
- ليلى صالح البسام: الأساليب والزخارف في الملابس التقليدية في نجد "دراسة مقارنة بين ملابس الرجال والنساء" رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية التربية للبنات بالرياض، ١٩٨٨م.

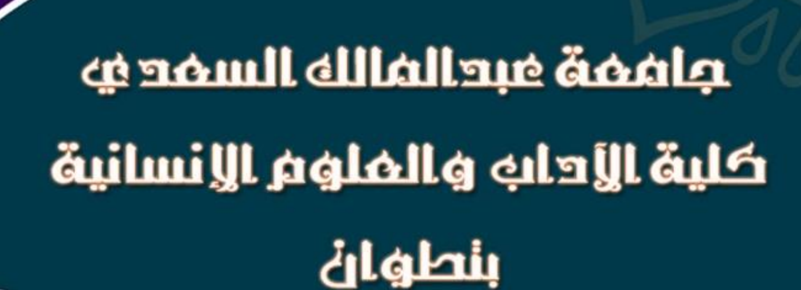
- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٩٨٨م.
- مضاوي الرشيد: السياسة في واحة عربية: إمارة آل الرشيد، مكتبة دار الساقي للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٧ك.
- نايف بن مطلق الشمري: قبيلة شمر في كتابات العرب والمستشرقين، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠١٢م.

ثانيا: الدوريات:

- جريدة الرياض الأربعاء ٢ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ - ٢٥ يناير ٢٠١٢م - العدد ١٥٩٢٠.
- جريدة الرياض الخميس ١٩ شوال ١٤٣٣ هـ - ٦ سبتمبر ٢٠١٢م - العدد ١٦١٤٥.
- جريدة الرياض، الخميس، ٢٧ ذو القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٥م، العدد ١٣٧٠٢.
- جريدة الرياض، الخميس، ٢٧ ذو القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٥م، العدد ١٣٧٠٢.
- جريدة الرياض، الجمعة ١٦ ذو القعدة ١٤٣٧ هـ - ١٩ أغسطس ٢٠١٦م.

ثالثًا: شبكة المواقع الالكترونية:

- https:/ / ar.wikipedia.org/ wiki
- nrjsih.own0.com
- www.aceuae.com
- www.almaany.com/ ar/ dict/ fa-ar
- www.alrassxp.com
- www.hummyfood.com
- www.mekshat.com
- http:/ / www.aenashmal.com/ n/ s/ 2360


جامعة عبد المالك السعدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بتطوان


مجلة
كلية الآداب